الابتلاء في ضوء القرآن الكريم،

أنواعه، أهدافه

تأليف/ عبد الرقيب عبده خالد عبد الله،

دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن

الجمهورية اليمنية

N٧١٢٨٤٩٥٠٥@gmail.com

استهلال

قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧]

الإهـــــــداء

إلى الذين رضوا بالله ربا،

بالإسلام دينا،

وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولا،

فأيقنوا أن ما أصابهم لم يكن ليخطئاهم،

وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم،

وعلموا أن في كل ما اختاره الله لهم من بلاء ومحن

هو خير لهم في دنياهم وأخراهم،

أهدي هذا الكتاب.

عبد الرقيب

المقدمة

هذه الدنيا دار ابتلاء وامتحان، فساعات السرور فيها قليلة، إذ أضحكت في يوم أبكت في يوم آخر، وما من أحد من الخلق في هذه الدنيا إلا وهو مبتلى، إما بمصائب وبلايا، أو بمحن ورزايا، أو بآلام تضيق بها النفوس، أو بمزعجات تورث الخوف والجزع، فكم ترى في الدنيا من شاكي، وكم تسمع فيها من باكي، فهذا يشكو علة وسقما، وآخر يشكو حاجة وفقرا.

وكل واحد منا سيُبتلى إما في ماله أو نفسه أو ماله وأهله، أو دينه وإيمانه، وقد أقسم الله تعالى على ذلك في كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾[آل عمران، ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً

﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، قال ابن عباس رضي الله عنهما أي:" نبتليكم بالشدة والرخاء، والصحة والسقم والغنى والفقر والحلال والحرام والطاعة والمعصية والهدى والضلالة" [١].

ولو سلم أحد من البلاء لسلم منه الأنبياء فهم أشد الخلق بلاء، فعن مصعب بن سعد عن أبيه قال :" قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الناس أشد بلاء ؟ قال : فقال صلى الله عليه وسلم:" **الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة**"[٢].

ولأهمية موضوع الابتلاء، فسوف نتناول الحديث عنه في هذا الكتاب، وسوف ينتظم الحديث عن أنواع الابتلاء وأهدافه؛ حتى يكون المؤمن على

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٥/١٧) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وعزاه في الدر المنثور (٦٢٩/٥) لابن المنذر وابن أبي حاتم واللالكائي في السنة

(٢) سنن ابن ماجه ، برقم، (٤٠٢٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ،برقم(١٤٣).

علم بهذا الموضوع وبالتالي يوطن نفسه لتلقي الابتلاءات قبل وقوعها، ويحتسب الأجر والثواب من الله تعالى.

عبد الرقيب عبده خالد عبد الله،

دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن

الجمهورية اليمنية

للتواصل

بريدي الإلكترونيN٧١٢٨٤٩٥٠٥@gmail com

موبايل/ واتس: ٧١٢٨٤٩٥٠٥

٣رجب ١٤٤٤ الموافق ٢٤/١/ ٢٠٢٣م

التمهيد: التعريف بمصطلحات الكتاب

أولا: الابتلاء في اللغة

قال الراغب الأصفهاني:" بلوت فلانا: إذا اختبرته، كأني أخلقته من كثرة اختباري له، يقال: بلي الثوب بلى وبلاء، أي: خَلِق"(٣).

وقال ابن منظور:" بلوت الرجل بلوا إذا جرَّبته واختبرته، وابتلاه الله امتحنه، والبلاء يكون في الخير والشر يُقال: ابتليته بلاء حسنا وبلاء سيئا"(٤)

وقال ابن الأثير:" الابتلاء في الأصل الاختبار والامتحان، يقال: بلوته وأبليته وابتليته، والابتلاء يكون في الخير والشر معا من غير فرق بين فعليهما، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥]" (٥).

فالمعنى اللغوي للبلاء والابتلاء يدل معنى الاختبار والامتحان .

---

(٣) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، صـ ١٤٥، باختصار وتصرف.

(٤) لسان العرب، لابن منظور، (١٤/ ٨٣)، باختصار.

(٥) النهاية في غريب الأثر، لابن الأثير، ١/ ٤١١، باختصار وتصرف.

ثانيا: الابتلاء في الاصطلاح

قال الكفوي:" الابتلاء: التكليف بالأمر الشاق من البلاء، وهو الاختبار "(٦).

وقال الحافظ ابن حجر:" المراد بالابتلاء الاختبار، هو من بلوته إذا استخرجت ما عنده، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، أي مختبركم، ولفظ البلاء من الأضداد الذي يدل على عدة معان، وتحرير ذلك أن الابتلاء يطلق ويراد به الاختبار، كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾ [محمد: ٣١]، يطلق ويراد به النعمة، كقوله تعالى: ﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾[الأنفال: ١٧]، فهذا من النعمة والعطية، ويطلق ويراد به النقمة، كقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩﴾ [البقرة: ٤٩]،

(٦) الكليات، للكفوي، صـ ٣٤، باختصار.

فهذا من النقمة، فالابتلاء من الافتعال ويراد به الاختبار والنعمة أو النقمة "[٧].

وقال الشوكاني:" الابتلاء: الامتحان والاختبار، أي: ابتلى الله الإنسان بما أمره به"[٨]، وقال الثعالبي:" الابتلاء: الاختبار من الله عز وجل لعباده على علم منه سبحانه بباطن أمرهم وظاهره، وإنما يبتليهم؛ ليظهر منهم سابق علمه فيهم"[٩].

ومما سبق يتبين لنا أن المعنى الاصطلاحي للابتلاء لا يختلف عن معناه للغوي ، فكلاهما يدلان في الغالب الأعم على الاختبار والامتحان.

وقد ورد لفظ (بلو) في القرآن الكريم (١٩) تسعة عشر مرة، بصيغ مختلفة،[١٠] وسوف نتناول معظمها في ثنايا هذا البحث بإذن الله تعالى وتوفيقه.

---

(٧) فتح الباري، شرح صحيح البخاري لابن حجر (١١/ ١٩٦)، باختصار، واختصار.

(٨) فتح القدير، للشوكاني (١/ ١٥٩)، بتصرف يسير.

(٩) تفسير الثعالبي (١/ ٣١٢).

(١٠) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي، صـ ٢٦.

ثالثاً: الأنبياء أشد الناس بلاء

أنبياء الله ورسله هم أشد الناس بلاء، وحياتهم خير شاهد على ذلك، فما من نبي إلاَّ ابتلاه الله تعالى بنوع من البلاء، وإذا أردنا استعراض مواقف ابتلاء الله لأنبيائه ورسله فسوف يطول بنا المقام، لكننا نكتفي بما ذكره العلامة ابن القيم في ذلك، حيث قال رحمه الله:" يا مخنث العزم أين أنت؟ والطريق طريق تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورمى في النار الخليل، وأضجع للذبح اسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونُشر بالمنشار زكريا، وذُبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضرَّ أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ ـ "(١١).

وقال في مفتاح دار السعادة:" وإذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجلِّ الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك

---

(١١) الفوائد، لابن القيم صـ : ٤١.

الابتلاء والامتحان عين الكرامة في حقهم، فصورته صورة ابتلاء وامتحان، وباطنه فيه الرحمة والنعمة، فكم لله مِن نعمة جسيمة ومنَّة عظيمة تُجنى من قطوف الابتلاء والامتحان.

فتأمل حال أبينا آدم صلى الله عليه وسلم وما آلت إليه محنته من الاصطفاء والاجتباء والتوبة والهداية ورفعة المنزلة، **وتأمل حال أبينا الثاني** نوح صلى الله عليه وسلم وما آلت إليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها حتى أقر الله عينه، وأغرق أهل الأرض بدعوته، وجعل العالم بعده من ذريته، وجعله خامس خمسة وهم أولو العزم الذين هم أفضل الرسل، وأمَر رسولَه ونبيه محمَّداً أن يصبر كصبره، وأثنى عليه بالشكر فقال:﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣]، فوصفه بكمال الصبر والشكر.

ثم تأمل حال أبينا الثالث إبراهيم صلى الله عليه وسلم إمام الحنفاء وشيخ الأنبياء وعمود العالم وخليل رب العالمين من بني آدم، وتأمل ما آلت إليه محنته وصبره وبذله نفسه لله، وتأمل كيف آل به بذله لله نفسه ونصره دينه إلى أن اتخذه الله خليلاً لنفسه. . . وضاعف الله له النسل وبارك فيه وكثر

حتى ملؤوا الدنيا، وجعل النبوة والكتاب في ذريته خاصة، وأخرج منهم محمَّداً صلى الله عليه وسلم وأمَره أن يتبع ملة أبيه إبراهيم.

ثم تأمل حال الكليم موسى عليه السلام وما آلت إليه محنته وفتونه من أول ولادته إلى منتهى أمره حتى كلَّمه الله تكليما، وقرَّبه منه، وكتب له التوراة بيده، ورفعه إلى أعلى السموات، واحتمل له ما لا يحتمل لغيره، فإنه رمى الألواح على الأرض حتى تكسرت، وأخذ بلحية نبي الله هارون وجرَّه إليه، ولطم وجه ملك الموت ففقأ عينه، وخاصم ربه ليلة الإسراء في شأن رسول الله، وربه يحبه على ذلك كله، ولا سقط شيء منه من عينه، ولا سقطت منزلته عنده، بل هو الوجيه عند الله القريب، ولولا ما تقدم له من السوابق وتحمل الشدائد والمحن العظام في الله ومقاسات الأمر الشديد بين فرعون وقومه ثم بني إسرائيل وما آذوه به وما صبر عليهم لله لم يكن ذلك.

ثم تأمل حال المسيح عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم وصبره على قومه واحتماله في الله وما تحمله منهم حتى رفعه الله إليه وطهره من الذين كفروا وانتقم من أعدائه، وقطَّعهم في الأرض ومزَّقهم كل ممزق وسلبهم ملكهم وفخرهم إلى آخر الدهر.

فإذا جئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وتأملت سيرتَه مع قومه وصبره في الله، واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله، وتلون الأحوال عليه مِن سِلْم وخوف، وغنى وفقر، وأمن وإقامة في وطنه وظعن عنه وتركه لله وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول والفعل والسحر والكذب والافتراء عليه والبهتان، وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله يدعو إلى الله فلم يؤذ نبي ما أوذي، ولم يحتمل في الله ما احتمله، ولم يعط نبي ما أعطيه، فرفع الله له ذكره وقرن اسمه باسمه، وجعله سيد الناس كلهم، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهاً، وأسمعهم عنده شفاعة، وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته، وهي مما زاده الله بها شرفاً وفضلاً، وساقه بها إلى أعلى المقامات. وهذا حال ورثته من بعده الأمثل فالأمثل كلٌّ له نصيب من المحنة، يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعته له"[١٢]

([١٢]) مفتاح دار السعاد، لابن القيم، ١/ ٢٩٩.

وقد يقول قائل: لماذا يبتلي الله أنبياءه ورسله وهم خيرة خلقه؟ يجيب على هذا التساؤل القاضي عياض قائلا:" اعلم وفقنا الله وإياك أن أفعال الله تعالى كلها عدل وكلماته جميعا صدق لا مبدل لكلماته يبتلى عباده كما قال لهم:﴿ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يونس: ١٤]، وقال:﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢] وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [محمد: ٣١]، فامتحانه إياهم بضروب المحن؛ زيادة في مكانتهم ورفعة في درجاتهم وأسباب لاستخراج حالات الصبر والرضى والشكر والتسليم والتوكل والتفويض والدعاء والتضرع منهم، وتأكيد لبصائرهم في رحمة الممتحنين والشفقة على المسلمين وتذكرة لغيرهم وموعظة لسواهم؛ ليتأسوا في البلاء بهم ويتسلوا في المحن بما جرى عليهم ويقتدوا بهم في الصبر محو لهنات فرطت منهم أو غفلات سلفت لهم؛ ليلقوا الله طيبين مهذبين؛ وليكون أجرهم أكمل وثوابهم أوفر وأجزل"[١٣].

(١٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، ٢/ ٢٠٤.

ولنأخذ مثالاً عملياً للابتلاء، وهذا المثال يتعلق بنبينا محمد ﷺ - فهو أكثر خلق الله تعالى تعرضا للبلاء، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت:" عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم حدثته أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال:" لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد فقال ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبي ﷺ - بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا"[١٤].

([١٤]) صحيح البخاري، برقم (٢٩٩٢).

فأنبياء الله ورسله عليهم السلام، رغم رفيع مكانتهم ومنزلتهم عند الله تعالى، إلا أنهم لم يسلموا من الابتلاء والتمحيص؛ حتى يكونوا قدوة لمن يأتون بعدهم من المؤمنين في كل زمان ومكان.

المبحث الأول: أنوع الابتلاء من خلال القرآن الكريم

ذكر الله تعالى في كتابه الكريم أنواعاً من الابتلاءات التي قد يبتلي الله بها عباده المؤمنين، وهذه الابتلاءات متعددة ومتنوعة، ويبدأ الابتلاء من لحظة دخول الإنسان لهذه الحياة الدنيا ويستمر إلى أن يموت ويغادر الإنسان الحياة الدنيا، ومن هذا الابتلاء، الابتلاء بالعبادات والطاعات، ومنه الابتلاء بالموت والحياة، ومنها الابتلاء بالسراء والضراء، ومنها الابتلاء بالجهاد في سبيل الله تعالى، وهذه الأنواع من أنواع الابتلاء سوف نتناولها في هذا المبحث بحسب ما يقتضيه المقام على النحو الآتي:

أولاً: الابتلاء بالعبادات والطاعات

معلوم أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته وطاعته، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦ – ٥٧]، فعبادة الله تعالى وطاعته نوع من أنواع الابتلاء الذي ابتلى الله تعالى به عباده، ولكي ينجح الإنسان في تجاوز هذا الابتلاء فقد زوَّده الله تعالى الإنسان بوسائل العلم والمعرفة؛ حتى يتوصل بها إلى معرفة الله تعالى وعبادته وطاعته، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢ – ٣]، قال الشيخ المراغي في تفسيره لهذه الآية: "قوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ أي: إنا خلقنا الإنسان من نطفة اختلط فيها ماء الرجل بماء المرأة، مريدين ابتلاءه

واختباره بالتكليف فيما بعد إذا شبّ وبلغ الحلم، قال الحسن: نختبر شكره فى السراء، وصبره فى الضراء"[١٥].

ابتلاء الله لإبراهيم عليه السلام

والقرآن الكريم حافل بكثير من النماذج التي ابتلاه الله تعالى ببعض العبادات والطاعات فنجحت في ذلك نجاك كبيرا، ومن هذه النماذج إبراهيم عليه السلام، والمتأمل في حياة إبراهيم عليه السلام يجد أن حياته مرَّت بسلسلة من الابتلاءات والامتحانات فقام بها خير قيام، وقد ذكر الله تعالى ذلك في كتابه الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:" أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملَّة إبراهيم وليسوا عليها، وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين، فاذكر لهم ابتلاء الله

---

(١٥) تفسير المراغي (٢٩/ ١٦٠).

إبراهيم، أي: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾أي: قام بهن كلهن"[١٦].

وقد اختلف العلماء في تفسير الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم الخليل، عليه السلام، قال ابن عباس:" ابتلي بسهام الإسلام كلها ولم يبتلَ بها أحد غيره وهي ثلاثون سهما، منها عشرة خصال في سورة براءة، في قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [التوبة: ١١٢]، وعشرة خصال في سورة الأحزاب، في قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم

([١٦]) تفسير ابن كثير ١/ ٤٠٥.

مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وست خصال في أول سورة المؤمنون في قوله تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المؤمنون: ١ – ١١]، وأربع خصال في سورة المعارج، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ﴿٢٨﴾ ﴾[المعارج: ١٩ – ٢٨]، وتخصيصه عليه السلام بهذا الابتلاء؛ لاحتماله ما

لا يحتمله غيره، قال الحسن: ما ابتلاه الله تعالى بشيء إلا وفى به، وفي ابتلائه في ذبح ولده اسماعيل ما فيه كفاية "[١٧].

روى طاووس عن ابن عباس أن الخصال التي ابتلى الله بها إبراهيم عليه السلام أنها عشر خصال، خمس في الرأس، وخمس خصال في الجسد، أما التي في الرأس ففرق الشعر، والمضمضة، والاستنشاق، وقص الشارب، والسواك، والخمس الخصال التي في الجسد: تقليم الأظافر، وحلق العانة، ونتف الإبط، والاستطابة بالماء، والختان"[١٨].

والذي يظهر في ابتلاء الله لإبراهيم بهذه الخصال حملها على العموم، فقد ابتلاه الله تعالى في كل ذلك فنجح فيها نجاحاً منقطع النظير.

ومن الابتلاء الذي حصل لإبراهيم ما ابتلاه الله به ذبح ولده إسماعيل عليه السلام، الذي رزقه الله بعد أن كبر سنه، فأحبه حباً شديد، فابتلاه الله بأن أمره أن يذبح ولده؛ ليتجرد قلبه لمحبة الله تعالى وحده، فامتثل الأمر ونجح في الابتلاء، وقد وصف الله تعالى هذا الابتلاء بأنه بلاء مبين، قال

([١٧]) روح المعاني، للألوسي ٢٠/ ١٨باختصار.

([١٨]) تفسير ابن الجوزي (١/ ١٢١.

تعالى، حكاية عن إبراهيم وإسماعيل: ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٣ – ١١١] قال الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية:"﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا ﴾أي: إبراهيم وابنه إسماعيل، جازما بقتل ابنه وثمرة فؤاده؛ امتثالا لابتلاء ربه، وخوفا من عقابه، والابن قد وطَّن نفسه على الصبر، وهانت عليه نفسه في طاعة ربه ورضاه، ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾ أي: تلَّ إبراهيم إسماعيل على جبينه، ليضجعه فيذبحه، وقد انكبَّ لوجهه، لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه، ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ ﴾في تلك الحال المزعجة، والأمر المدهش: ﴿ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ ﴾ أي: قد فعلت ما أُمرت به، فإنك وطَّنت نفسك على ذلك، وفعلت كل سبب، ولم يبق إلاَّ إمرار السكين على حلقه، ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ في عبادتنا، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم. ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾

الذي امتحنا به إبراهيم عليه السلام لَهُوَ الْبَلاءُ الواضح، الذي تبيَّن به صفاء إبراهيم، وكمال محبته لربه وخلَّته، فإن إسماعيل عليه السلام لما وهبه اللّه لإبراهيم، أحبه حبا شديدا، وهو خليل الرحمن، والخلة أعلى أنواع المحبة، وهي منصب لا يقبل المشاركة وتقتضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحبوب، فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه بابنه إسماعيل، أراد تعالى أن يصفي وُدَّه ويختبر خلَّته، فأمره أن يذبح من زاحم حبه حب ربه، فلما قدّم حب اللّه، وآثره على هواه، وعزم على ذبحه، وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبح لا فائدة فيه، فلهذا قال: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ أي: صار بدله ذبح من الغنم عظيم، ذبحه إبراهيم، فكان عظيما من جهة أنه كان فداء لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قربانا وسنة إلى يوم القيامة. ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴾أي: وأبقينا عليه ثناء صادقا في الآخرين، كما كان في الأولين، فكل وقت بعد إبراهيم عليه السلام، فإنه فيه محبوب معظم مثني عليه. ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي: تحيته عليه ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ في عبادة

اللّه وطاعته، فبي أن نفرِّج عنهم الشدائد، ونجعل لهم العاقبة، والثناء الحسن﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾بما أمر اللّه بالإيمان به، الذين بلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين"[١٩].

ابتلاء الله تعالى للمؤمنين بنهيهم عن الصيد وقت الإحرام

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم نموذجاً الآخر، ممن ابتلاهم الله تعالى ببلاء فنجحوا فيه، إنهم المؤمنون حال إحرامه بالحج أو العمرة، فقد حرَّم الله تعالى عليهم الصيد حال احرامهم، مع قرب من الصيد منهم، وهو في متناول أيديهم، ومع ذلك امتثلوا أمر الله تعالى وأطاعوه في ذلك، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٤ ﴾ [المائدة: ٩٤]، قال سيد قطب في تفسيره لهذه الآية:" تبدأ هذه الآية بالنداء المألوف بقوله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، ثم يخبرهم أنهم مقدمون على امتحان من الله وابتلاء؛ في أمر الصيد الذي نهوا عنه وهم محرمون فقال لهم: ﴿ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ

---

(١٩) تفسير السعدي صـ ٧٠٦.

ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ إنه صيد سهل، يسوقه الله إليهم، صيد تناله أيديهم من قريب، وتناله رماحهم بلا مشقة، ولقد ساق لهم هذا الصيد حتى كان يطوف بخيامهم وبمنازلهم!، إنه الإغراء الذي يكون فيه الابتلاء .

ولقد كان هذا الاختبار بالصيد السهل في أثناء فترة الإحرام أحد الاختبارات التي اجتازتها هذه الأمة بنجاح، وكانت عناية الله – سبحانه – بتربية هذه الأمة بمثل هذه الاختبارات من مظاهر رعايته واصطفائه.

ولقد كشف الله للذين آمنوا في هذا الحادث عن حكمة الابتلاء: ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ ﴾، إن مخافة الله بالغيب هي قاعدة هذه العقيدة في ضمير المسلم، القاعدة الصلبة التي يقوم عليها بناء العقيدة، وبناء السلوك، وتناط بها أمانة الخلافة في الأرض بمنهج الله القويم، إن الناس لا يرون الله؛ ولكنهم يجدونه في نفوسهم حين يؤمنون به، إنه تعالى بالنسبة لهم غيب، ولكن قلوبهم تعرفه بالغيب وتخافه، إن استقرار هذه الحقيقة الهائلة – حقيقة الإيمان بالله بالغيب ومخافته – والاستغناء عن رؤية الحس

والمشاهدة؛ والشعور بهذا الغيب شعوراً يوازي – بل يرجح – الشهادة؛ حتى ليؤدي المؤمن شهادة: بأن لا إله إلا الله، وهو لم ير الله .

ومن ثم يجعلها الله سبحانه حكمة لهذا الابتلاء؛ ويكشف للذين آمنوا عن هذه الحكمة كي تحتشد نفوسهم لتحقيقها والله سبحانه يعلم علماً لَدُنِّياً من يخافه بالغيب، ولكنه – سبحانه – لا يحاسب الناس على ما يعلمه عنهم علماً لَدُنِّياً، إنما يحاسبهم على ما يقع منهم فيعلمه الله – سبحانه – علم وقوع، ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: قد اختار بنفسه هذا الجزاء واستحقه فعلاً؛ لأن الله تعالى قد أخبره بهذا الابتلاء، وعرف حكم تعرُّضه له، وحذره من الوقوع فيه؛ وبذلت له كل أسباب النجاح في هذا الابتلاء، ومع ذلك أصرَّ على الوقوع فيه "[٢٠].

(٢٠) في ظلال القرآن لسيد قطب٢/ ٤٣٥، باختصار، وتصرف.

ابتلاء الله تعالى لبني إسرائيل بنهيهم عن الصيد يوم السبت

وفي مقابل نجاح أهل الإيمان في ابتلاء الله لهم بتحريم الصيد عليهم حال الإحرام، ذكر الله تعالى نموذجا آخر لمن ابتلاهم الله تعالى ببلاء قريب من هذا لكنهم عصوا الله تعالى واعتدوا على ما حرَّمه الله عليهم، أنهم أصحاب القرية من بني إسرائيل الذين حرَّم الله تعالى عليهم الصيد يوم السبت، قال تعالى:" ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، قال الشيخ الزحيلي في تفسيره لهذه الآية:" واسأل يا محمد يهود عصرك عن قصة أصحابهم الذين عصوا الله تعالى خالفوا أمره ، ففاجأتهم نقمته على عصيانهم أمر الله تعالى واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة، والسؤال للتوبيخ والتقريع، وبيان أن كفر المعاصرين للنبي صلّى الله عليه وآله وسلم ليس جديدا، بل هو موروث، فإن أسلافهم ارتكبوا الذنب العظيم،

وخالفوا أوامر الله تعالى. وحذرهم من مخالفتك لئلا يحل بهم ما حل بسلفهم.

اسألهم عن أهل المدينة التي كانت قريبة من البحر، حين اعتدوا حدود الله، وتجاوزوها يوم السبت الذي يعظمونه، بترك العمل فيه، وتخصيصه للعبادة، فخالفوا أمر الله فيه بالوصية لهم به إذ ذاك، واصطادوا السمك فيه، وقد نهوا عنه، فكان السمك يأتيهم كثيرا على سطح الماء يوم تعظيم السبت، ولا يحتاج صيده إلى عناء، ويوم لا يسبتون، في سائر الأيام غير السبت، تختفي الأسماك ولا تظهر، ولا تأتيهم كما كانت تأتيهم يوم السبت.

فاحتالوا على صيدها بإقامة الأحواض حيث يأتي المد بالسمك ثم إذا انحسر الماء بالجزر، تبقى الأسماك في الأحواض، فيأخذونها يوم الأحد.

ابتلاء الله تعالى لبني إسرائيل بنهيهم عن الشرب من ماء النهر

ومثل ذلك البلاء لبني إسرائيل، بظهور السمك يوم السبت المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في الأيام التي يحل لهم صيده، نبلو السابقين والمعاصرين، ونعاملهم معاملة من يختبر حالهم، ليجازي كل

واحد على عمله، بسبب فسقهم المستمر وخروجهم عن طاعة الله لأن من سنة الله أن من أطاعه، سهل له أمور الدنيا، وأثابه في الآخرة، ومن عصاه، ابتلاه بأنواع المحن والمصائب"[٢١]

وقريبا من هذا الابتلاء الذي حصل لبيني إسرائيل، ما حصل للملأ من بني إسرائيل من بعد موسى، الذين اقترحوا على نبي لهم أن يبعث الله لهم ملكا يكون قائداً لهم وهم سيقاتلون تحت رايته، فلما بعث الله لهم طالوا ملكاً عليهم كما طلبوا، وقبل التحرك معهم لقتال أعدائهم، أمره الله أن يبتليَ عزائمهم وصدق إرادتهم في قتال أعدائهم، فكان الابتلاء بعدم الشرب من ماء النهر، إلاَّ من اغترف منه غرفة صغيرة بيده، لكنهم شربوا منه إلا القليل منهم، وقد ذكر الله تعالى هذا النوع من الابتلاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، قال الشيخ الشعراوي في تفسيره لهذه

---

(٢١) التفسير المنير للزحيلي (٩/ ١٤٢)، باختصار وتصرف.

الآية:" عندما تسمع كلمة ﴿مُبۡتَلِيكُم﴾ فلا تفسرها على أنها مصيبة، ولكن فسرها على أنها اختبار، قد ينجح من يدخل فيه وقد يفشل، فعندما خرج طالوت إلى مكان إقامة جيشه بدأ في مباشرة أولى مهماته كملك، لقد أراد أن يختبرهم فهم قوم وقفوا ضد تعيينه ملكا عليهم؛ لذلك أراد أن يدخل المعركة على أرض صلبة، فقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾، لقد أوضح لهم: أنهم مقبلون على مهمة في سبيل الله، والله سبحانه هو الذي سيجري عليكم الاختبار، ولست أنا؛ لأن الاختبار يكون على قدر المهمة، أنا مشرف فقط على تنفيذ الأمر، والله مبتليكم بنهر من يشرب منه فليس منا إلا من اغترف غرفة بيده، ومع ذلك لم يقسُ الله في الابتلاء، فأباح ما يفك العطش ولم يحرمهم منه نهائيا، لقد سمح لهم بغرفة يد تسد الرمق وتستبقي الحياة، أباح لهم ما تقتضيه الضرورة.

فالاختبار هنا بنهر، ومادام كان الاختبار بنهر فلا بد أن لهذه الكلمة موقعا وأثرا نفسيا عندهم، لابد أنهم كانوا عطاشا، وإلا لو لم يكونوا عطاشا لما كان النهر ابتلاء، إنهم عطاش، وساعة يرون الماء فسيُقبلون عليه بنهم شربا وريا، وينسون أمر الله، ومن ينسَ أمر الله ويفضل نفسه، فهو غير مأمون أن يكون في جند الله، لكن الذي يرى الماء ويمتنع عنه وهو في حاجة إليه، فهو صابر قادر على نفسه، وسيكون من جند الله؛ لأنه آثر مطلوب الله على مطلوب بطنه، وهو أهل لأن يبتلى.

لكن ما صلة هذا الابتلاء بالمعركة الحربية التي سيقبلون عليها؟ إن العملية الحربية التي سيدخلونها سيقابلون فيها الويل، وسيتعرضون فيها لنفاذ الزاد وهم أيضا عرضة لأن يحاصرهم عدوهم، وعلى الإنسان المقاتل في مثل هذه الأمور أن يقوى على شهوته ويأخذ من زاده ومائه على قدر ضرورة استبقاء الحياة؛ لذلك تكفي غرفة واحدة لاستبقاء الحياة، كأن التدريب هنا ضرورة للمهمة، فهل فعلوا ذلك؟ يأتينا الخبر من الحق ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾، وهكذا تتم التصفية، ففي البداية سبق لهم أن تولوا وأعرضوا عن القتال إلا قليل، وهنا امتنع عن الشرب قليل من

القليل، وهذه غرابيل الابتلاء أو مصافي الاختبار، فقد يقوى واحد على نصف المشقة، ويقوى آخر على ثلث المشقة، ويقوى ثالث على ربعها، لقد بقي منهم القليل، لكنه القليل الذي يصلح للمهمة؛ إنه الذي ظل على الإيمان ونجح في الابتلاء، وانظر كيف تكون مصافي الابتلاء في الجهاد في سبيل الله؟ حتى لا يحمل راية الجهاد إلا المأمون عليها الذي يعرف حقها، وينجح في الابتلاء الرباني العجيب"[٢٢].

والمتأمل في منهج القرآن الكريم في الابتلاء للناس بالتكاليف الطاعات، يجد أنه يتدرج من الابتلاء بالأمور الصغيرة إلى أن يصل إلى الابتلاء الأمور الكبيرة، فمن نجح في الابتلاء بالأمور الصغيرة أهَّله ذلك للنجاح في الابتلاء بالأمور الكبيرة، والعكس بالعكس.

فعلى المسلم، الطالب للنجاة في الدنيا والآخرة، أن يوطن نفسه على المسارعة إلى تنفيذ أوامر الله تعالى وطاعته، وليعلم أن الله تعالى ابتلاه في ذلك، فليصبر وليحتسب، وليثق بون الله له وتأييده إذا هو أقبل على عبادته وطاعته.

([٢٢]) تفسير الشعراوي، صـ ٦٦٥، باختصار، وتصرف.

ثانيا: الابتلاء بالموت والحياة

أوجد الله تعالى الإنسان في هذه الحياة الدنيا للابتلاء، ويبدأ هذا الابتلاء والامتحان من سن التكليف؛ وذلك بأن يبتلي الله تعالى الإنسان بجملة من الأوامر والنواهي، فطلب الله تعالى من الإنسان القيام بالطاعات واجتناب المحرمات، وينتهي هذا الابتلاء بالموت، وقد ذكر الله تعالى هذا النوع من الابتلاء في قوله تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾ [الملك: ١ – ٢] قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية:" أمات الله تعالى من شاء، وأحيا من أراد إلى أجل معلوم ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ ﴾ أي: ليختبركم فينظر أيكم له أطوع، وإلى طلب رضاه أسرع" [٢٣].

ويوضِّحُ سيد قطب حقيقة الابتلاء بالموت والحياة الوارد في هذه الآية ، حيث قال رحمه الله :" هذه الآية تشير إلى قضية الابتلاء، فليست

([٢٣]) تفسير الطبري ٢٣/ ٥٠٥، باختصار.

المسألة خلقاً بلا غاية، إنما هو الابتلاء لإظهار المكنون في علم الله من سلوك الأناسي على الأرض، واستحقاقهم للجزاء على العمل.

واستقرار هذه الحقيقة في الضمير، يدعه أبداً يقظاً حذراً متلفتاً واعياً للصغيرة والكبيرة في النية المستترة والعمل الظاهر، ولا يدعه يغفل أو يلهو، كذلك لا يدعه يطمئن أو يستريح، فإذا استيقظ القلب، وشعر أنه هنا للابتلاء والاختبار، وحذر وتوقى، فأنَّى له أن يطمئن إلى غفران الله ورحمته وأن يقر عندها ويستريح! ومن ثم يجيء التعقيب: ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴾؛ ليسكب الطمأنينة في القلب الذي يرعى الله ويخشاه، فالله عزيز غالب ولكنه غفور مسامح". "[٢٤].

وقد يتساءل البعض، لماذا قدم الله تعالى في هذه الآية الموت على الحياة، عند حديثه عن الابتلاء، يجيب عن هذا التساؤل الإمام الشوكاني

([٢٤]) في ظلال القرآن، لسيد قطب٧/ ٢٦٣، باختصار وتصرف.

قائلا:" وقدّم الموت على الحياة؛ لأن أصل الأشياء عدم الحياة، والحياة عارضة لها، وقيل: لأن الموت أقرب إلى القهر"[٢٥].

الابتلاء بحسن العمل

وقد جعل الله تعالى الحياة الدنيا كلها ساحة لابتلاء الخلق واختبارهم بحسن العمل، وهذه الحقيقة أشار الله تعالى إليها في قوله:﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف: ٧]، قال الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية:" المعنى: أن الدنيا مستطابة في ذوقها معجبة في منظرها كالثمر المستحلى المعجب المرأى، فابتلى الله بها عباده؛ لينظر أيهم أحسن عملا، أي من أزهد فيها وأترك لها، ولا سبيل للعباد إلى بغضة ما زينه الله إلا أن يعينهم الله على ذلك، فالابتلاء بالدنيا حاصل،

([٢٥]) تفسير الشوكاني ٧/ ٢٦٢.

وعدم السلامة من الفتنة بها غالب، وقد أفلح من أسلم ورزق كفافا وأقنعه الله بما أتاه"[٢٦] .

وفي آية أخرى يُبيِّنُ الله تعالى أن الهدف من خلق السموات والأرض وهو ابتلاء الناس واختبارهم بأحسن الأعمال، قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧]، قال الشيخ الشنقيطي في تفسيره لهذه الآية:" في هذه الآية الكريمة صرَّح الله تعالى أنه خلق السماوات والأرض لحكمه ابتلاء الخلق واختبارهم، ولم يخلقهما عبثاً ولا باطلاً، ونزَّه نفسه تعالى عن ذلك، وصرَّح بأن من ظن ذلك فهو من الذين كفروا وهددهم بالنار فقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ "[٢٧].

([٢٦]) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٥٤، باختصار وتصرف يسير.

([٢٧]) تفسير الشنقيطي ٢/ ٢٧٩.

والمتأمل في آيات الابتلاء السابق ذكرها يجد أن مدار ابتلاء الله تعالى للعباد فيها بحسن العمل وليس بكثرته، فما هو العمل الحسن الذي عليه مدار الابتلاء؟ يجيب عن ذلك الإمام ابن كثير بقوله:" لا يكون العمل حسنا حتى يكون خالصا لله عز وجل، وعلى شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمتى فقد العمل واحدا من هذين الشرطين بطل وحبط، **وقد سئل الفضل ابن عياض عن العمل الحسن** فقال:" ما كان خالصاً صوابا، والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون متبعا فيه الشرع والسنة، وإن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا، لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا "[٢٨].

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحذر أمته من الاغترار بالحياة الدنيا، ويدعوهم إلى حسن العمل فيها؛ لأنهم في ابتلاء وامتحان، فعن أبى سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" إن الدنيا

([٢٨]) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٠٨)، وينظر تفسير السعدي صـ ٣٧٧.

حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء "[٢٩].

فالهدف من خلق الله تعالى للناس في هذه الحياة الدنيا هو الا ابتلاء والاختبار، وتظهر نتيجة هذا الابتلاء بعد الموت في الدار الآخرة، إما بدخول الجنة أو النار، فلا يغتر المسلم بزينة الحياة الدنيا، فتنسيه العمل الحسن للفوز في الدار الآخرة، فإن الموت سينقله إلى من دنياه إلى أخراه، ولن ينفعه في تلك الدار إلاَّ العمل الحسن.

([٢٩]) صحيح مسلم، كتاب الرقائق، باب أكثر أهل الجنة، وبيان الفتنة بالنساء، برقم(٧١٢٤).

ثالثا: الابتلاء بالضراء

وهذا النوع من الابتلاء إذا أصيب به الإنسان فإنه قد يظن إنما أصابه الله بذلك لكراهية الله له، والحقيقة عكس ذلك، فإن الله تعالى إذا ابتلى عبداً من عباده بضراء فذلك دليل على محبة لله تعالى لهذا العبد؛ وذلك أنه إذا صبر واحتسب ولم يسخط على هذا البلاء، أعظم الله له الجزاء، وكفَّرَ عنه من سيئاته ورفع درجاته، فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، و إن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، و من سخط فله السخط** "(٣٠).

وقد أشار الله تعالى إلى هذا النوع من الابتلاء في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧ ﴾ [الفجر: ١٥ – ١٧]، قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:" يقول تعالى مُنْكرًا على

(٣٠) سنن ابن ماجه، برقم(٤٠٣١)، وهو في السلسلة الصحيحة للألباني، برقم (١٤٦) .

الإنسان في اعتقاده أنه إذا وسَّع الله عليه في الرزق ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان، وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضَيَّق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له. قال الله: ﴿ كَلَّا ﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على الابتلاء في كل من الحالين، إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيرًا بأن يصبر"[٣١].

أنواع الابتلاء بالضراء

والابتلاء بالضراء يشمل أموراً كثيرة، وقد ذكر الله تعالى بعض هذه الأمور في قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ

---

(٣١) تفسير ابن كثير ٨/ ٣٩٨.

﴿١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٥ – ١٥٧]، قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية:" أي:" ولنختبرنكم بشيء من خوف ينالكم من عدوكم وبِسَنةٍ تُصيبكم ينالكم فيها مجاعة وشدة، وتتعذر المطالب عليكم، فتنقص لذلك أموالكم، وحروبٌ تكون بينكم وبين أعدائكم من الكفار، فينقص لها عددكم، وموتُ ذراريكم وأولادكم، وجُدوب تحدُث، فتنقص لها ثمارك، كل ذلك امتحان مني لكم، واختبار مني لكم، فيتبين صادقوكم في إيمانهم من كاذبيكم فيه، ويُعرف أهل البصائر في دينهم منكم، من أهل النفاق فيه والشك والارتياب"[٣٢].

وقد ذكر سيد قطب في ظلاله فوائد الابتلاء للدعوة والدعاة، وهي فوائد مهمة يجدر بنا أن نثبتها هنا كاملة لأهميتها ونفاستها، قال رحمه الله :" **لا بد من تربية النفوس بالبلاء**، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، لا بد من هذا البلاء ليؤدي؛ المؤمنون تكاليف العقيدة، كي تعز على نفوسهم بمقدار

(٣٢) تفسير الطبري ٣/ ٢٢٠.

ما أدوا في سبيلها من تكاليف. والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى .

فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين، وكلما تألموا في سبيلها، وكلما بذلوا من أجلها، كانت أعز عليهم وكانوا أضن بها، كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها، إنهم عندئذ سيقولون في أنفسهم: لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيراً مما يبتلون به وأكبر ما قبلوا هذا البلاء، ولا صبروا عليه، وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها، مقدرين لها، مندفعين إليها، وعندئذ يجيء نصر الله والفتح ويدخل الناس في دين الله أفواجاً.

ولا بد من الابتلاء كذلك؛ ليَصْلَب عود أصحاب العقيدة ويقوى، فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة؛ وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد، والقيم والموازين والتصورات ما كانت لتصح وتدق وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون، والران عن القلوب وأهم من هذا كله، الالتجاء إلى

الله وحده حين تهتز الأسناد كلها، وتتوارى الأوهام وهي شتى، ويخلو القلب إلى الله وحده، لا يجد سنداً إلا سنده، وفي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات، وتتفتح البصيرة، وينجلي الأفق على مد البصر، لا شيء إلا الله، لا قوة إلا قوته، لا حول إلا حوله، لا إرادة إلا إرادته، لا ملجأ إلا إليه، وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصور صحيح.

والنص القرآني هنا يصل بالنفس إلى هذه النقطة على الأفق: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ إنا لله، كلنا كل ما فينا، كل كياننا وذاتيتنا لله، وإليه المرجع والمآب في كل أمر وفي كل مصير التسليم، التسليم المطلق تسليم الالتجاء الأخير المنبثق من الالتقاء وجهاً لوجه بالحقيقة الوحيدة، وبالتصور الصحيح، هؤلاء هم الصابرون، الذين يبلغهم الرسول الكريم بالبشرى من المنعم الجليل، وهؤلاء هم الذين يعلن المنعم الجليل مكانهم عنده جزاء الصبر الجميل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾، صلوات من

ربهم، يرفعهم بها إلى المشاركة في نصيب نبيه الذي يصلي عليه هو وملائكته سبحانه وهو مقام كريم، ورحمة وشهادة من الله بأنهم هم المهتدون ،وكل أمر من هذه هائل عظيم .

وبعد فلا بد من وقفة أمام هذه الخاتمة في تلك التعبئة للصف الإسلامي، التعبئة في مواجهة المشقة والجهد، والاستشهاد والقتل، والجوع والخوف، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، التعبئة في هذه المعركة الطويلة الشاقة العظيمة التكاليف .

إن الله يضع هذا كله في كفة، ويضع في الكفة الأخرى أمراً واحداً، صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون، **إنه لا يعدهم هنا نصراً ، ولا يعدهم هنا تمكيناً ولا يعدهم هنا مغانم، ولا يعدهم هنا شيئاً إلا صلوات الله ورحمته وشهادته،** لقد كان الله يعد هذه الجماعة لأمر أكبر من ذواتها وأكبر من حياتها . فكان من ثم يجردها من كل غاية، ومن كل هدف ومن كل رغبة من الرغبات البشرية – حتى الرغبة في انتصار العقيدة – كان يجردها من كل شائبة تشوب التجرد المطلق له ولطاعته ولدعوته، كان عليهم أن يمضوا في طريقهم لا يتطلعون إلى شيء إلا رضى الله وصلواته

ورحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون، هذا هو الهدف، وهذه هي الغاية، وهذه هي الثمرة الحلوة التي تهفو إليها قلوبهم وحدها، فأما ما يكتبه الله لهم بعد ذلك من النصر والتمكين فليس له، إنما هو لدعوة الله التي يحملونها .

إن لهم في صلوات الله ورحمته وشهادته جزاء؛ جزاء على التضحية بالأموال والأنفس والثمرات، وجزاء على الخوف والجوع والشدة وجزاء على القتل والشهادة، إن الكفة ترجح بهذا العطاء فهو أثقل في الميزان من كل عطاء، أرجح من النصر وأرجح من التمكين وأرجح من شفاء غيظ الصدور، هذه هي التربية التي أخذ الله بها الصف المسلم ليعده ذلك الإعداد العجيب، وهذا هو المنهج الإلهي في التربية لمن يريد استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من بين البشر أجمعين"[٣٣].

وقد أقسم الله تعالى في كتابه الكريم على وقوع هذا النوع من الابتلاء، وبيَّن أنه أشد ما يكون إيلاماً إذا كان في الأموال والأنفس، وبالإصابة بالأذى الكثير من الذين أوتوا الكتاب ومن المشركين، قال تعالى:

([٣٣]) في ظلال القرآن، لسيد قطب ١/ ١١٦.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، قال الشيخ الشعراوي في تفسيره لهذه الآية:" الابتلاء مجرد اختبار، والاختبار غرضة أن تنجح فيه أو أن ترسب، فالمسألة اختبار فيه ابتلاء، والابتلاء في المال يكون بأن تأتي آفة تأكله، وإن وجد يكون فيه بلاء من لون آخر، وهي اختبارك هل تنفق هذا المال في مصارف الخير وتعطيه للمحتاجين، فمرة يكون الابتلاء في المال بالإفناء، ومرة في وجود المال ومراقبة كيفية تصرفك فيه.

والبلاء في النفس يكون بالقتل، أو بالجرح أو بالمرض، والأذى الكثير من الذين أوتوا الكتاب ومن المشركين تمثل في محاولة إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم، وأذى الاستهزاء بالمؤمنين، وأهل الكفر والشرك يقولون للمؤمنين ما يكرهون، فالابتلاء لا بد أن يقع، فوطنوا أنفسكم أيها المسلمون أن تستقبلوا تلك الابتلاءات بالصبر وبالقبول والرض؛ لهذا قال تعالى:"

﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أي: من معزوماتها التي تقتضي الثبات منك أمام هذه الابتلاءات"[٣٤].

ابتلاء الله تعالى لأيوب عليه السلام

ومن النماذج القرآنية في الابتلاء بالضراء، ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم من قصة نبيه أيوب عليه السلام، الذي ابتلاه الله تعالى في نفسه وأهله وماله وولده، ومع ذلك تلقى كل هذه الابتلاءات بالصبر والرضى، فاستحق ثناء الله عليه،قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص: ٤١ – ٤٤]، قال الإمام ابن كثير في تفسيره:" يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب عليه السلام وما كان ابتلاه الله تعالى به من الضر في جسده وماله وولده، حتى لم يبق من

([٣٤]) تفسير الشعراوي، صـ ١٣١٦، بتصرف واختصار.

جسده مَغْرز إبرة سليما سوى قلبه، ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحوا من ثماني عشرة سنة، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا فَسُلبَ جميع ذلك منه"[٣٥].

وقد جاء في السنة النبوية وصف دقيق للابتلاء الذي أصاب أيوب عليه السلام، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **إن نبي الله أيوب صلى الله عليه وسلم لبث به بلاؤه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين فقال له صاحبه: و ما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله، فيكشف ما به فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقولان، غير أن الله تعالى يعلم أني كنت أمر بالرجلين يتنازعان، فيذكران الله فأرجع إلى بيتي**

([٣٥]) تفسير ابن كثير ٧/ ٧٤.

فأكفر عنهما؛ كراهية أن يذكر الله إلا في حق، قال: و كان يخرج إلى حاجته فإذا قضى حاجته أمسكته امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها و أوحي إلى أيوب أن ﴿ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴾ فاستبطأته فتلقته تنظر وقد أقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، و هو أحسن ما كان فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، والله على ذلك ما رأيت أشبه منك إذ كان صحيحا، فقال: فإني أنا هو ، و كان له أندران[٣٦]، أندر للقمح و أندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض و أفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض "[٣٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه رجل جراد من ذهب فجعل يحثي في

([٣٦]) الأنْدَر: هو الموضع الذي يوضع فيه الطَّعام، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ٤/ ٨١.

([٣٧]) رواه أبو يعلى في مسنده ١ / ١٧٦ ، وأبو نعيم في " حلية الأولياء " (٣ / ٣٧٤، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم(١٧).

ثوبه فناداه ربه يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى قال بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك"(٣٨).

فإذا علم المسلم أن الابتلاء بالضراء له حكم كثيرة قد يعلمها العبد وقد لا يعلمها؛ تلقى كل أقدار الله تعالى النازلة عليه بالقبول والرضا التام، فعلى المسلم أن يُوطن نفسه لاستقبال البلاء بالضراء بالصبر والاحتساب، وأن يعلم يقينا أن فيما قدره الله تعالى وقضاه عليه من الابتلاء أن فيه خيرا له في عاجله وآجله.

---

(٣٨) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[الأنبياء: ٨٣]، برقم(٣١٤٠).

رابعاً: الابتلاء بالسراء

إذا أنعم الله تعالى على عبدٍ من عباده بنعم متعددة، فكثر خيره وماله، وأصبح في سراء من أمره، وفي بحبوحةٍ من عيشه، فإن العبد قد يظن إن حصوله على ذلك لا يلحقه أي تبعات، وما علم أنه في ابتلاء فيما آتاه الله؛ ليعلم الله تعالى أيشكر العبد أم يكفر، ومن الآيات القرآنية الدالة على هذا النوع من الابتلاء قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، قال الشيخ الطنطاوي في تفسيره لهذه الآية:" إن الابتلاء بالضراء مفهوم أمره؛ ليتكشف مدى احتمال المبتلى، ومدى صبره على الضر، ومدى ثقته فى ربه، ورجائه فى رحمته، كما أن الابتلاء الضراء قد يثير الكبرياء، ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب لاستقبال الشدة، أما الابتلاء السراء والرخاء فقد يرخى الأعصاب ويفقدها المقاومة ،إلا من عصم الله؛ لذلك فهو فى حاجة إلى بيان .

إن الابتلاء بالسراء أشد وطأة من الابتلاء بالضراء، فكثير من الناس يصمدون أمام الابتلاء بالضراء ولكن القلة القليلة هى التي تصمد أمام

الابتلاء بالسراء، وكثير من الناس يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف، وقليلون هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة، كثير من الناس يصبرون على الفقر والحرمان، فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل، وقليلون هم الذين يصبرون على الثراء ومغرياته وما يثيره من أطماع، وكثير من الناس يصبرون على الكفاح والجراح، وقليلون هم الذين يصبرون على الدعة، ولا يصابون بالحرص الذى يذل أعناق الرجال"[٣٩].

ابتلاء الله تعالى لسليمان عليه السلام

وقد ذكر الله تعالى لنا في كتابه الكريم نموذجا للشاكرين لله تعالى عند الابتلاء بنعمة السراء، وهذا النموذج هو نبي الله سليمان عليه السلام، فرغم الملك والسلطان العظيم الي آتاه الله له، إلا أنه بادر إلى شكر الله تعالى، وقد أخبر الله تعالى عنه أنه قال عندما منَّ الله عليه برؤية عرش بلقيس أمامه: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن

(٣٩) تفسير الطنطاوي صـ ٢٨٩٨، باختصار وتصرف.

كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠]، قال الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية:" فلم يغتر عليه السلام بملكه وسلطانه وقدرته كما هو دأب الملوك الجاهلين، بل علم أن ذلك ابتلاء من ربه فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة، ثم بَيَّن أن هذا الشكر لا ينتفع الله به وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه فقال:﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ غني عن أعماله كريم كثير الخير يعم به الشاكر والكافر، إلا أن شكر نعمه داع للمزيد منها وكفرها داع لزوالها"(٤٠).

ابتلاء الله تعالى لأصحاب الجنة

وفي المقابل ذكر الله تعالى نموذجا آخر لمن ابتلاهم الله بالسراء والخير، لكنهم ما شكروا الله على نعمه وما أدوا منه حق الفقراء والمساكين، فعاقبهم الله تعالى على فعلهم هذا ، إنهم أصحاب الجنة، قال تعالى:﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾

(٤٠) تفسير السعدي صـ ٦٠٥.

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القلم: ١٧ – ٢٠]،

قال الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية:" ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ ﴾الابتلاء الاختبار، والمعنى: أعطينا أهل مكة الأموال ليشكروا لا ليبطروا، فلما بطروا ابتليناهم بالجوع والقحط﴿ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾المعروف خبرهم عندهم[٤١]، والجنة هي جنة كانت بضوران، وضوران منطقة في اليمن على بعد فراسخ من صنعاء، ووقعت هذه القصة بعد رفع عيسى عليه السلام بوقت بيسير ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أي: حلفوا ليقطعنها في وقت الصباح، ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ يعني: ولا يقولون إن شاء الله،﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ أي: طاف على تلك الجنة طائف من جهة الله سبحانه، والطائف قيل: هو نار أحرقتها حتى صارت سوداء، كذا قال مقاتل، وقيل: الطائف جبريل

([٤١]) ذكر أهل التفسير أن رجلاً كان بناحية اليمن له بستان، وكان مؤمناً، وذلك بعد عيسى بن مريم عليهما السلام، وكان يأخذ منه قدر قوته، وكان يتصدّق بالباقي، وقيل: إنه كان يترك للمساكين ما تعدَّاه المنجل، وما يسقط من رؤوس النخل، فكان يجتمع من هذا شيء كثير، فمات الرجل عن ثلاث بنين ، فقالوا: والله إن المال لقليل، وإن العيال لكثير، وإنما كان أبونا يفعل هذا إذْ كان المال كثيراً، والعيال قليلاً، وأما الآن فلا نستطيع أن نفعل هذا، فعزموا على حرمان المساكين، ينظر: تفسير ابن الجوزي ٦/ ٥٩.

اقتلعها، ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ أي: كالشيء الذي صرمت ثماره أي: قُطِّعَت، وقال الفرّاء: كالصريم كالليل المظلم، والمعنى: أنها حرقت فصارت كالليل الأسود، والصريم الرماد الأسود بلغة خزيمة"[٤٢].

ومن باب شكر نعمة الله تعالى على النعم، ينبغي لمن ابتلاه الله بنعمة السراء أن يجود مما أعطاه الله على الفقراء والمساكين؛ حتى يكون من الشاكرين لله تعالى على نعمه، قال الإمام القرطبي في تفسيره عند هذه الآية:" على من حصد زرعا أو جد ثمرة أن يواسي منها من حضره، وذلك معنى قوله:﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ [الانعام: ١٤١] وأنه غير الزكاة وقال بعضهم: وعليه ترك ما أخطأه الحصادون، وروي أنه نهى عن الحصاد بالليل، فقيل: إنه لما ينقطع عن المساكين في ذلك من الرفق، وتأول من قال هذا الآية التي في سورة" القلم"."[٤٣].

([٤٢]) تفسير الشوكاني ٧/ ٢٧٩، باختصار.

([٤٣]) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٣٩).

ابتلاء الله تعالى للثلاثة الأبرص والأقرع والأعمى

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم لأمته قصة ثلاثة نفر من بني إسرائيل ابتلاهم الله تعالى بنعمة السراء فنجح فيها اثنان ورسب الثالث، فعن هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم:" يقول إن ثلاثة في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى **بدا لله عز وجل أن يبتليهم** فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال أي شيء أحب إليك؟ قال لون حسن وجلد حسن، قد قذرني الناس قال فمسحه فذهب عنه فأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا، فقال أي المال أحب إليك؟ قال الإبل أو قال البقر. هو شك في ذلك إن الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر. فأعطي ناقة عشراء فقال: يبارك لك فيها.

وأتى الأقرع فقال أي شيء أحب إليك؟ قال شعر حسن ويذهب عني هذا قد قذرني الناس، قال فمسحه فذهب وأعطي شعرا حسنا قال فأي المال أحب إليك؟ قال البقر قال فأعطاه بقرة حاملا وقال: يبارك لك فيها.

وأتى الأعمى فقال أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس قال فمسحه فرد الله إليه بصره قال فأي المال أحب إليك؟

قال: الغنم فأعطاه شاة والدا فأنتج هذان وولد هذا فكان لهذا واد من إبل ولهذا واد من بقر ولهذا واد من غنم.

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ عليه في سفري فقال له: إن الحقوق كثيرة فقال له: كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس؟ فقيرا فأعطاك الله؟ فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له: مثل ما قال لهذا فرد عليه مثل ما رد عليه هذا فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري فقال: قد كنت أعمى فرد الله بصري، وفقيرا

فقد أغناني فخذ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله فقال: **أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك**"[٤٤]

فمن رزقه الله تعالى رزقاً حسنا، فوسّع الله عليه في رزقه وماله، فليعلم أن الله تعالى ابتلاه في ذلك، فليشكر الله تعالى على ذلك، وليؤدي حقه، في إطعام الفقراء والمساكين، وانفاقه في أوجه الخير والبر.

([٤٤]) صحيح البخاري، برقم(٣٢٠٥)، وصحيح مسلم، برقم(٥٢٦٥).

خامسا: الابتلاء بالجهاد في سبيل الله

شرع الله عزَّ وجلَّ الجهاد في سبيله؛ لصد العدوان، ولحفظ بيضة الإسلام، وجعل منه اختبارا وابتلاءاً لعباده المؤمنين؛ لأن الطباع تجبن عنه، والنفوس تكره، مع أن فيه خيراً كثيرا، كما قال تعالى:﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾[البقرة: ٢١٦].

وقد ذكر الله تعالى إلى هذا النوع من الابتلاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [محمد: ٣١]، قال الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية:" أي: ولنعاملنَّكم معاملة المُخْتَبَر؛ وذلك بأن نأمركم بالجهاد؛ حتى نعلم من امتثل الأمر بالجهاد، وصبر على دينه، ومشاقّ ما كلف به، ومن نكص عنه﴿ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾

أي: نظهرها ونكشفها امتحاناً لكم؛ ليظهر للناس من أطاع ما أمره الله به، ومن عصى، ومن لم يمتثل"[٤٥] .

ولما كان الصراع بين الحق والباطل سنة من سنن الله في هذا الوجود، فقد ابتلى الله عباده المؤمنين بخوض هذه المواجهة مع الباطل وأهله، مع أنه سبحانه وتعالى قادر على تدمير الباطل وأهله، لكن سنة الله تعالى اقتضت حصول الابتلاء لعباده المؤمنين لمواجه الباطل، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٤ ﴾[محمد: ٤]، قال الشيخ الزحيلي في تفسيره لهذه الآية:" في هذه الآية يبيّن اللَّه تعالى الحكمة في شرع القتال، وهي امتحان الناس واختبار صبرهم على المكاره، وإلاَّ فاللَّه قادر على الانتصار من أعدائه بالانتقام منهم، وإهلاكهم وتعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب كالخسف والرجفة والغرق، دون قتال منكم أيها المؤمنون، ولكن اللَّه أمركم بحربهم؛ ليبتلي بعضكم ببعض، فيعلم المجاهدين في سبيله، والصابرين على

([٤٥]) تفسير الشوكاني ٦/ ٤٨٤.

ابتلائه، ويجزل ثوابهم، ويعذب الكفار بأيديهم، أو يحملهم الخوف على الإيمان بالله تعالى قبل نزول العذاب بهم، ومشاهدة قتل أمثالهم"[٤٦].

ابتلاء الله تعالى للمؤمنين يوم الخندق

كان الابتلاء من الله تعالى للمؤمنين يوم الخندق ابتلاءً عظيم؛ حيث تحالف على حربهم اليهود والمشركون والمنافقون، وكان هدف هذا الحلف الثلاثي القضاء على الاسلام والمسلمين، وقد حاصروا المسلمين في المدينة من كل الجهات، وبَلْبَلَ المنافقون في داخل المدينة، وكانت كل المؤشرات تدل على أن ساعة الصفر، في القضاء على الاسلام والمسلمين قد اقتربت، وهنا بلغ البلاء بالمؤمنين مبلغاً عظيما، وبلغت قلوبهم من الخوف الحناجر، وعندما وصل البلاء بالمؤمنين إلى هذه الحالة جاءهم الفرج والنصر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩ إِذۡ جَآءُوكُم

([٤٦]) التفسير المنير للزحيلي (٢٦/ ٨٦)

مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ۝١١ ﴾[الأحزاب: ٩ – ١١]، قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره لهذه الآية:" يقول تعالى ذكره: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾ التي أنعمها على جماعتكم؛ وذلك حين حوصر المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الخندق ﴿ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ ﴾: جنود الأحزاب: قريش، وغَطفان، ويهود بني النضير ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا ﴾ وهي فيما ذكر ريح الصَّبا، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق، حتى كفأت قدورهم على أفواهها، ونزعت فساطيطهم, فكانت كلما أوقدوا نارا أطفأها الله، قوله:﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ ﴾ فالذين جاءوهم من فوقهم بنو قريظة، والذين جاءوهم من أسفل منهم، قريش وغطفان، وقوله:﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾، وحين عدلت الأبصار عن مقرّها، وشخصت طامحة، وقوله﴿ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ ﴾أي: نَبَت القلوب عن أماكنها من الرعب والخوف، فبلغت إلى الحناجر،

وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾أي: وتظنون بالله الظنونَ الكاذبة، وذلك كظنّ من ظنّ منهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سوف يُغلب، وأن ما وعده الله من النصر أن لا يكون، ونحو ذلك من ظنونهم الكاذبة التي ظنها من ظنّ ممن كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عسكره، وقوله﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ أي: عند ذلك اختبر إيمان المؤمنين، ومُحِّصَ القوم وعرف المؤمن من المنافق"[٤٧] .

جحم الابتلاء للمؤمنين يوم الخندق

ولكي نعرف على حجم الابتلاء الذي عاش أحداثه المؤمنون يوم الخندق ينبغي لنا أن نقف عند روايات السيرة النبوية وهي تصف لنا الجو الذي حصل فيه الابتلاء للمؤمنين، قال ابن اسحاق في سيرته:" وقد كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود، منهم سلام بن أبي الحقيق النضري، وحُيي بن أخطب النضري، هم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله صلى

([٤٧]) تفسير الطبري٢٠/ ٢١٤، باختصار.

الله عليه وسلم، خرجوا حتى قدموا مكة على قريش، فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فلما قالوا ذلك لقريش، سرّهم ما قالوا، ونشطوا لما دعوهم له من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له، ثم خرج أولئك النفر من اليهود، حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشا قد تابعتهم على ذلك، فأجابوهم فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن، فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما اجتمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة؛ فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق، أقبلت قريش في عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تابعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى جبل سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكره، والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذّراري والنساء، فرفعوا في الآطام، وخرج عدوّ الله حيي بن أخطب

النضري، حتى أتى كعب بن أسد القرظيّ، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه، وعاهده على ذلك وعاقده، فلما سمع كعب بحييّ بن أخطب، أغلق دونه حِصْنَه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له، فناداه حييّ: يا كعب افتح لي، قال: ويحك يا حييّ، إنك امرؤ مشئوم، إني قد عاهدت محمدا، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا؛ قال: ويحك افتح لي أكلمك، قال: ما أنا بفاعل، قال: والله إن أغلقت دوني إلا تخوّفت على أن آكل معك، ففتح له، فقال: يا كعب جئتك بعزّ الدهر، وببحر طمّ، جئتك بقريش على قاداتها وساداتها، وبغطَفان على قاداتها وساداتها، وقد عاهدوني وعاقدوني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه، فقال له كعب بن أسد القرظيّ: جئتني والله بذلّ الدهر، فدعني ومحمدا وما أنا عليه، فلم أر من محمد إلا صدقا ووفاء؛ فلم يزل حييّ بكعب حتى سمع له على أن أعطاهم عهدا من الله وميثاقا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان عليه، فيما بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلما انتهى إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر، وإلى المسلمين، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ، وهو يومئذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة ب وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة فقال: "**انطلقوا حتى تنظروا أحقّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقا فالحنوا لي لحنا أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم، فاجهروا به للناس**" فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلموا عليه، ثم قالوا: **عضل والقارة:** أي: غدر كغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحاب الرجيع خبيب بن عدي وأصحابه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين،** وعظم عند ذلك البلاء، واشتدّ الخوف، وأتاهم عدوّهم من فوقهم، ومن أسفل منهم، حتى ظنّ المسلمون كلّ ظنّ، ونجم النفاق من بعض المنافقين، حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن

يذهب إلى الغائط، وحتى قال أوس بن قيظي أحد بني حارثة بن الحارث: يا رسول الله إن بيوتنا لعورة من العدوّ، وذلك عن ملإٍ من رجال قومه، فأذن لنا فلنرجع إلى دارنا، وإنها خارجة من المدينة، فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وعشرين ليلة قريبا من شهر، ولم يكن بين القوم حرب إلا الرمي بالنبل والحصار."[٤٨].

الابتلاء بتأخير نصر الله

وعندما أنز الله تعالى هذا الابتلاء بالمؤمنين يوم الخندق تعالت أصوات بعضهم، متى نصر الله ؟، وقد أنزل الله تعالى تعليقا على ذلك آيات تتلى إلى يوم القيامة، قَالَ قتادة والسُّدي، قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾[البقرة: ٢١٤] نزلت هذه الآية في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما

([٤٨]) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢١٤)، باختصار وتصرف وينظر: تفسير الطبري٢٠/ ٢١٤.

أصابهم من الجهد والشدة والحر والخوف والبرد وسوء العيش وأنواع الأذى، وكان كما قَالَ الله تعالى: ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ [الأحزاب : ١٠]"[٤٩]، قال الشيخ رشيد رضا في تفسيره حول هذه الآية:" قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ ﴾الخطاب في الآية موجه إلى أهل الصدر الأول من المسلمين الذين كانوا خير أمة أخرجت للناس، وفيه أكبر عبرة وموعظة لمن يأتي بعدهم، ويحسبون أنهم بمجرد الانتماء إلى الإسلام يكونون أهلا لدخول الجنة، جاهلين سنة الله تعالى في أهل الهدى منذ خلقهم، وهي تحمل الشدائد والمصائب والضرر والإيذاء في طريق الحق، وهذه سنة من سنن الله تعالى وسننه في خلقه واحدة لا تحويل لها ولا تبديل.

أمثال هؤلاء يخاطبهم الله تعالى بقوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي: وإلى الآن لم يصبكم ما أصاب الذين سبقوكم بالإيمان والهدى والدعوة إلى الحق من النبيين

([٤٩]) أسباب النزول ، للواحدي (٥/ ١١)، وينظر: تفسير الطبري ٢/٣٤١.

والصديقين والشهداء والصالحين، والمراد بالمثل: الوصف العظيم والحالة التي لها شأن بحيث يضرب بها المثل، أي: لم تكن لكم هذه الحال الشديدة إلى الآن، وهذا النفي المستغرق مما يوجه الأذهان إلى طلب العلم بما أصاب أولئك الأقوام؛ ولذلك وصله بالبيان فقال: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾، **البأساء:** الشدة تصيب الإنسان في غير نفسه وبدنه كأخذ المال والإخراج من الديار وتهديد الأمن ومقاومة الدعوة، **والضراء:** ما يصيب الإنسان في نفسه كالجرح والقتل، **وأما الزلزال:** فهو الاضطراب في الأمر يتكرر حتى يكاد يزل صاحبه عنه، كما قال تعالى في المؤمنين يوم الأحزاب: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[الأحزاب: ١١]، والآية التي نفسرها تصرِّح بأن بعض السابقين كانوا أشد زلزالا من هذا الذي وقع للمسلمين في يوم الأحزاب، ولعل الغاية التي وصلوا إليها سلفنا ولم يصل إليها هي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: حتى وصلوا إلى غاية من الشدائد والأهوال لم يروا فيها منفذا لسبب من أسباب الفوز؛ لأن قوة

أعداء الحق أحاطت بهم من كل جانب ودنت حتى ظنوا أن نصر الله الذي وعد الله به من ينصر الحق قد أبطأ فاستعجلوه بقولهم: ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾؟ فأجابهم تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ بأن نصرهم، وكف عنهم شر أهل البغي، وأيد دعوتهم وجعل كلمتهم العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى وكان الله قويا عزيزا، ومثل هذه الآية – بل أشد – منها قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ [يوسف: ١١٠].

والرسول في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ للجنس، وقد ذكرت هذه الغاية في الشدة بصيغة المضارع ﴿يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ تصويرا لها كأنها حاضرة؛ ليتمثل المخاطب هولها وشدتها فيخف عنده ما يجده مما هو دونها، وما من شدة تصيب الأمم إلا وهي دون الشدة التي يستعجل بها رسل الله تعالى نصر الله استبطاء له، وهم أعلم الناس بالله تعالى وأشدهم اتكالا عليه وتسليما له.

ولعمري إن المسلمين لم يصلوا في تلك الشدة التي حملت عليها الآية إلى تلك النهاية التي قال فيها أولئك الرسل ما قالوا، ولقد قتل بعض النبيين، ومنهم من نشر بالمنشار حيا، وناهيك بأصحاب الأخدود الذين أحرقوا المؤمنين فيه بالنار ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [البروج: ٤ – ٨]

وحاصل معنى الآية لوم المؤمنين على ذلك الحسبان، وبيان أن ما كانوا فيه من الشدة والألم في وقعة الأحزاب، أو في عامة أحوالهم قبل فتح مكة، إذ كانوا يألمون من منازعة المشركين واليهود والمنافقين ويقاسون من جحودهم وكيدهم ما يقاسون، كل ذلك قليل في جنب ما قاسى غيرهم ممن سبقهم بالإيمان والهدى؛ إذ كان استعداد البشر أضعف وقسوتهم أشد وعنادهم أقوى"[٥٠] .

([٥٠]) تفسير المنار (٢/ ٢٣٨)، باختصار وتصرف يسير.

وقريباً من معنى هذه الآية لفظاً ومعنى قوله تعالى، ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، قال الشيخ الزحيلي في تفسيره لهذه الآية:" هل ظننتم دخول الجنة وأنتم لم تجاهدوا في سبيل الله، ولم تصبروا في القتال؟ فلا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا وتختبروا، ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله، والصابرين على مقاومة الأعداء. والجهاد أنواع: جهاد النفس والهوى والشيطان، وخاصة في عهد الشباب، وجهاد العدوّ بالنفس لإعلاء كلمة الله والدّفاع عن البلاد والأوطان، والجهاد بالمال في سبيل الدّين والأمّة والمصلحة العامة، وجهاد الباطل ومدافعته ونصرة الحق، والصبر مطلوب عند أداء التكاليف الشرعية الدائمة والمؤقتة، وطاعة الله والرّسول، وفي وقت البلاء والشدة والمحنة، وعند مقاومة الأعداء، والمراد بنفي العلم من الله عدم ظهوره ووقوعه، فهو دليل على عدم وقوع الجهاد

والصبر منكم، أما في الحقيقة فالله يعلم ذلك منذ الأزل، ولكن المراد إقامة الدّليل والبرهان على الناس بصدور ما يوجب لهم الجنة والمغفرة"[٥١].

(٥١) التفسير المنير للزحيلي (٤/ ١٠٨).

طول فترة الابتلاء

وعندما تطول فترة الابتلاء تتعالى أصوات كثير من أهل الحق متى نصر الله تعالى؟ السنا بالمؤمنين المستحقين لنصر الله تعالى؟ لماذا تأخر عنا نصر الله تعالى؟، وهنا يذكر سيد قطب جملة من الأسباب والحكم لتأخر نصر الله تعالى لعباده المؤمنين، رغم طول فترة ابتلائهم، قال رحمه الله:" للنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه، وقد يبطئ النصر لأسباب، **فقد يبطئ النصر** لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقاتها، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً!.

وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة ، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً، لا تبذله هيناً رخيصاً في سبيل الله .

وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر، إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله.

وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل؛ ولا تجد لها سنداً إلا الله، ولا متوجهاً إلا إليه وحده في الضراء، وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله . فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله.

وقد يبطئ النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحققه، أو تقاتل حمية لذاتها، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله، بريئاً من المشاعر الأخرى التي تلابسه، فعن أبي موسى قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضبا، ويقاتل حمية، فرفع إليه رأسه، قال: وما رفع إليه

رأسه إلا أنه كان قائما :" **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل** " [٥٢] .

قد يبطئ النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصاً، ويذهب وحده هالكاً، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار!

وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله؛ فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تتكشف لهم الحقيقة . فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عارياً للناس، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية!

وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معها قرار، فيظل الصراع قائماً حتى تتهيأ النفوس من حوله

([٥٢]) صحيح البخاري (٢٠٩)، برقم(١٢٠.

لاستقبال الحق الظافر ، ولاستقبائه، **من أجل هذا كله**، قد يبطئ النصر، فتتضاعف التضحيات، وتتضاعف الآلام"[٥٣].

فمن أنواع الابتلاء، الابتلاء بالجهاد بمفهومه الواسع، فكل جهدٍ يبذله المسلم لنصرة دين الله تعالى، أو نفع خلق الله تعالى أو عمارة الأرض، كل ذلك لون من ألوان الجهاد التي يُرجى أن يُثيب الله تعالى العبد عليها، متى ما أخلُصت لله نيته وحسُسن مقصده.

([٥٣]) في ظلال القرآن، سيد قطب٥/ ٢٠٠، باختصار وتصرف.

المبحث الثاني: أهـــداف الابتـــلاء

قد يقول قائل ما لهداف من الابتلاء الذي ينزله الله تعالى على عباده؟ ولماذا يبتليهم بالأسقام والآلام والأحزان والفقر والجوع والجوف، ويسلط عليهم الأعداء، وغير ذلك مما تكرهه النفس؟

وللجواب عن ذلك نقول: إن أفعال الله وأقداره وابتلائه لعباده لا تصدر إلا عن حكمة بالغة، والمتأمل في كتاب الله تعالى وفي سنتة رسوله صلى الله عليه وسلم، يجد أن الابتلاءات التي يصيب الله تعالى بها بعض عباده لها أهداف كثيرة، وهذه الأهداف متعددة ومتنوعة، منها تكفير السيئات، ورفع الدرجات، ومن ذلك تمييز المؤمنين من المنافقين، ومن أهدافه تربية المؤمنين وتأديبهم، ومنها أن الابتلاء قد يكون مقدمة لتمكين الله تعالى لعباده الصالحين في الأرض، وفي هذا المبحث سوف نتناول هذه الأهداف بشيء من التفصيل بحسب ما يقتضيه المقام على النحو الآتي:

أولاً: الابتـلاء لتكـفـير السيـئات

جعل الله تعالى هذه الدنيا دار امتحان وابتلاء، فهي لا تخلو من الأكدار ولا تصفو لأحد أبدا، وهي دار ما سَرَّت إلا وأحزنت، وما أضحكت إلا وأبكت، وما وَسَّعت إلا وضيَّقت، وقد جعل الله تعالى الإنسان فيها يكابد الأهوال والمشاق؛ ليبتليه في هذه الدار، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾[البلد: ٤]، قال ابن كثير:" قرأ الحسن هذه الآية ثم قال:" يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة، وفي رواية: كابد أمراً من أمر الدنيا، وأمراً من أمر الآخرة "(٥٤) .

الابتلاء رحمة من الله بعباده..!!

إن ابتلاء الله تعالى للعبد بالمصائب والأمور المزعجة دليل على محبة الله لهذا العبد؛ وذلك أن الله تعالى يكفِّرُ عنه بهذا الابتلاء بعض ذنوبه ومعاصيه، فإذا أراد الله بعبد خيرا عجَّلَ له بعض عقوبات ذنوبه التي ارتكبها في الدنيا؛ حتى إذا قدم على الله تعالى في الآخرة لقية وقد تخفَّفَ

---

(٥٤) تفسير ابن كثير، ٨/ ٤٠٣.

من بعض ذنوبه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **من يرد الله به خيرا يصب منه** "(٥٥).

وقد دخل شباب من قريش على عائشة وهي بمنى وهم يضحكون فقالت: **ما يضحككم؟** قالوا فلان خرَّ عليه طنب فسطاط فكادت عنقه أو عينه أن تذهب فقالت: لا تضحكوا فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" **ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة**"(٥٦)، قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث:" **الطنب**" هو الحبل الذي يشد به الفسطاط وهو الخباء ونحوه، وفي هذا الحديث النهي عن الضحك من مثل هذا، إلا أن يحصل غلبة لا يمكن دفعه، وأما تعمده فمذموم؛ لأن فيه إشماتا بالمسلم وكسرا لقلبه، وقوله صلى الله عليه وسلم:" **ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ، ومحيت عنه بها خطيئة** "، وفي بعض النسخ " **وحط عنه بها** " وفي رواية " **إلا كتب الله بها حسنة، أو حط عنه بها خطيئة** ".

---

(٥٥) صحيح البخاري ،كتاب المرض، برقم (٥٢١٣).

(٥٦) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن، برقم(٤٦٦٤).

وفي هذه الأحاديث بشارة عظيمة للمسلمين، فإنه قلما ينفك الواحد منهم ساعة من شيء من هذه الأمور، وفيه تكفير الخطايا بالأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها، وفيه رفع الدرجات بهذه الأمور، وزيادة الحسنات، وهذا هو الصحيح الذي عليه جماهير العلماء، وحكى القاضي عن بعضهم أنها تكفر الخطايا فقط، ولا ترفع درجة، ولا تكتب حسنة. قال: وروي نحوه عن ابن مسعود قال: الوجع لا يكتب به أجر، لكن تكفر به الخطايا فقط، واعتمد على الأحاديث التي فيها تكفير الخطايا، ولم تبلغه الأحاديث التي ذكرها مسلم المصرحة برفع الدرجات، وكتب الحسنات"[٥٧].

ومما يدل على أن الابتلاء بالمصائب يكفر به الذنوب الخطايا ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال لما نزلت: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾[النساء: ١٢٣]، بلغت من المسلمين مبلغا شديدا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم" **قاربوا وسددوا، ففي كل ما يصاب به**

([٥٧]) شرح صحيح مسلم، للنووي (٨/ ٣٧٤) .

المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها أو الشوكة يشاكها"[٥٨]، قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث، قوله صلى الله عليه وسلم: " **قاربوا** " أي اقتصدوا فلا تغلوا ولا تقصروا، بل توسطوا "**وسددوا**" أي اقصدوا السداد وهو الصواب، قوله صلى الله عليه وسلم: "**حتى النكبة ينكبها**"، وهي مثل العثرة يعثرها برجله، وربما جرحت أصبعه، وأصل النكب الكب والقلب"[٥٩].

وجاء في مسند الإمام أحمد أن أبا بكر قال: يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ ، فكل سوء عملنا جزينا به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟ قال: بلى قال فهو ما تجزون به**"[٦٠].

([٥٨]) صحيح مسلم، برقم(٤٦٧١).

([٥٩]) شرح صحيح مسلم، للنووي (٨/ ٣٨١)، باختصار.

([٦٠]) مسند أحمد، برقم(٦٨)، قال الشيخ الأرناؤوط عن هذا الحديث: صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه بين أبي بكر بن أبي زهير وبين أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وفي صحيح مسلم، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على أم السائب أو أم المسيب فقال:" **ما لك يا أم السائب أو يا أم المسيب تزفزفين؟** قالت الحمى لا بارك الله فيها فقال:" **لا تسبي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد**"[٦١]، جاء في شرح هذا الحديث:" قوله صلى الله عليه وسلم: "**لا تسبي الحمى**" مع أنها لم تصرح بسب الحمى وإنما دعت عليها بـ "**لا بارك الله فيها**" غير أن مثل هذا الدعاء يتضمن تنقيص المدعو عليه وذمه فصار ذلك كالتصريح بالذم والسب وقوله "**فإنها تذهب خطايا بني آدم**" هذا تعليل لمنع سب الحمى لما يكون فيها من الثواب، فيتعدى ذلك لكل مشقة أو شدة يرتجى عليها ثواب فلا ينبغي أن يذم شيء من ذلك ولا يسب، وحكمة ذلك أن سب ذلك إنما يصدر في الغالب عن الضجر وضعف الصبر أو عدمه وربما يفضي بصاحبه إلى السخط المحرم مع أنه لا يفيد ذلك فائدة ولا يخفف ألما قوله

([٦١]) صحيح مسلم، برقم(٤٦٧٢).

"**كما يذهب الكير خبث الحديد**" هذا من أجمل التشبيه وأحسنه فإن الكير يذهب الصدأ بحرارته، كما أن الحمى تكفر الخطايا بسخونتها"[٦٢].

والابتلاء بالأسقام والأمراض والحمي لا يسلم منه حتى الأنبياء والرسل، بل هم أشد بلاء من غيرهم في هذا الجانب، فعن سويد عن عبد الله قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوعك فقلت يا رسول الله إنك لتوعك وعكا شديدا:" **قال أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم قلت ذلك أن لك أجرين قال: أجل ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها**"[٦٣]، قال الحافظ ابن حجر في شرحه لهذا الحديث:" والمعنى: أن شدة المرض ترفع الدرجات وتحط الخطيئات حتى لا يبقى منها شيء، ومثل هذا الحديث حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" **لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في جسده وأهله وماله حتى يلقى الله عز**

---

(٦٢) الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم، لمحمد الأمين الهَرَري الشافعي، ٢٤/ ٣٤١.

(٦٣) صحيح البخاري، برقم(٥٢١٦).

وجل وما عليه خطيئة "[٦٤]، قال أبو هريرة: ما من وجع يصيبني أحب إلي من الحمى ، إنها تدخل في كل مفصل من ابن آدم، والله يعطي كل مفصل قسطه من الأجر.

أما حديث مصعب بن سعد عن أبيه قال:" قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أشد بلاء؟ قال: فقال صلى الله عليه وسلم:" **الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة**"[٦٥]، فهو حديث الباب ووجه الدلالة فيه من جهة قياس الأنبياء على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وإلحاق الأولياء بهم؛ لقربهم منهم وإن كانت درجتهم منحطة عنهم، والسر فيه أن البلاء في مقابلة النعمة، فمن كانت نعمة الله عليه أكثر كان بلاؤه أشد، ومن ثم ضوعف حد الحر على العبد، وقيل لأمهات المؤمنين: ﴿ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ

([٦٤]) صحيح الأدب المفرد، للألباني، برقم(٤٩٤).

([٦٥]) سنن ابن ماجه ، برقم،(٤٠٢٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم(١٤٣).

ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ [الأحزاب: ٣٠] قال ابن الجوزي: في الحديث دلالة على أن القوي يحمل ما حمل، والضعيف يرفق به إلا أنه كلما قويت المعرفة بالمبتلى هان عليه البلاء، ومنهم من ينظر إلى أجر البلاء فيهون عليه البلاء، وأعلى من ذلك درجة من يرى أن هذا تصرف المالك في ملكه فيسلم ولا يعترض، وأرفع منه من شغلته المحبة عن طلب رفع البلاء، وأنهى المراتب من يتلذذ به لأنه عن اختياره نشأ، والله أعلم"[٦٦].

ومما يدل على أن الابتلاء بالأسقام والأمراض كفارات للذنوب حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت هذه الأمراض التي تصيبنا ما لنا بها؟ قال: **كفارات**، قال: أبي وان قَلَّتْ؟ قال: "**وان شوكة فما فوقها**"، قال فدعا أبي علي نفسه أن لا يفارقه الوعك حتى يموت في أن لا يشغله عن حج ولا عمرة ولا جهاد في

([٦٦]) فتح الباري، شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني١٦/ ١٣٧، باختصار وتصرف.

سبيل الله ولا صلاة مكتوبة في جماعة فما مسه إنسان الا وجد حره حتى مات"[٦٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: عاد مريضا ومعه أبو هريرة من وعك كان به فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **أبشر، إن الله عز وجل يقول ناري أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا؛ لتكون حظه من النار في الآخرة**"[٦٨].

وقد ذكر العلامة ابن القيم جملة من فوائد وحكم الابتلاء بالأسقام والأمراض، قال رحمه الله تعالى:" ومن حكم الابتلاء بالأمراض، تكفير الذنوب والسيئات، مرضك أيها المريض سبب في تكفير خطاياك التي اقترفتها بقلبك وسمعك وبصرك ولسانك، وسائر جوارحك، ومن هذه الحكم استخراج عبودية الضراء وهي الصبر، إذا كان المرء مؤمنا حقا فإن كل أمره خير، وعن صهيب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه

([٦٧]) مسند أحمد، برقم(١١١٩٩)، قال شعيب الأرناؤوط، في تعليقه على هذا الحديث: إسناده حسن.

([٦٨]) صحيح ابن ماجة، للألباني، برقم (٣٤٦١)، ومسند أحمد ، برقم(٩٦٧٤) وقال عنه شعيب الأرناؤوط،: إسناده جيد.

وسلم:" **عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له**" [٦٩]، من فوائد الابتلاء بالمرض أنه يرد العبد الشارد عن ربه إليه، ويذكره بمولاه بعد أن كان غافلا عنه، ويكفه عن معصيته بعد أن كان منهمكا فيه"[٧٠].

السيئات التي يكفرها الابتلاء

وقد ذكر الحافظ ابن حجر كلاماً نافعاً حول هذا الحديث، بَيَّنَ فيه المراد بما يكفره الابتلاء من ذنوب العبد ومعاصيه، هل كبائر الذنوب مع صغائرها؟ أم صغائرها فقط؟ وهل يحصل الصابر على الابتلاء على الأجر مع تكفير بعض خطاياه؟ أم يكفر عنه بعض خطاياه فقط ولا يحصل على الأجر؟ وغير ذلك من المسائل الهامة المتعلقة بالابتلاء، قال رحمه الله :" قال أبو عبيد الهروي: معنى هذا الحديث أن يبتلي العبد بالمصائب؛ ليثيبه عليها، وقال غيره: معناه يوجه إليه البلاء فيصيبه، وفي هذا الحديث وغيره

([٦٩]) صحيح مسلم، برقم (٥٣١٨).

([٧٠]) عدة الصابرين، لابن القيم صـ ١٣، باختصار.

من الأحاديث[٧١]، بشارة عظيمة لكل مؤمن؛ لأن الآدمي لا ينفك غالبا من ألم بسبب مرض أو هم أو نحو ذلك مما ذكر، وأن الأمراض والأوجاع والآلام بدنية كانت أو قلبية تكفر ذنوب من تقع له وظاهره تعميم جميع الذنوب، لكن الجمهور خصوا ذلك بالصغائر، لحديث " **الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارات لما بينهن، ما اجتنبت الكبائر**"[٧٢]، فحملوا المطلقات الواردة في التكفير على هذا المقيد، ويحتمل أن يكون معنى الأحاديث التي ظاهرها التعميم أن المذكورات صالحة لتكفير الذنوب، فيكفر الله بها ما شاء من الذنوب، ويكون كثرة التكفير وقلته باعتبار شدة المرض وخفته، ثم المراد بتكفير الذنب ستره أو محو أثره المرتب عليه من استحقاق العقوبة.

وقد استدل به على أن مجرد حصول المرض أو غيره مما ذكر يترتب عليه التكفير المذكور، سواء انضم إلى ذلك صبر على المصاب أم

---

(٧١) كحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه"، صحيح البخاري، برقم(٥٢١٠).

(٧٢) صحيح مسلم، برقم(٣٤٢).

لا، وأبى ذلك قوم كالقرطبي فقال: محل ذلك إذا صبر على المصاب واحتسب، وقال ما أمر الله به في قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فحينئذ يصل إلى ما وعد الله ورسوله به من ذلك، وتُعُقِّبَ بأنه لم يأت على دعواه بدليل، وأن في تعبيره بقوله : " **بما أمر الله** " نظرا إذ لم يقع هنا صيغة أمر، وأجيب عن هذا بأنه وإن لم يقع التصريح بالأمر فسياقه يقتضي الحث عليه والطلب له، ففيه معنى الأمر .

وأجيب عن الأول بأنه حمل الأحاديث الواردة بالتقييد بالصبر على الأحاديث المُطْلَقة، وهو حمل صحيح، لكن كان يتم له ذلك لو ثبت شيء منها، بل هي إما ضعيفة، لا يحتج بها وإما قوية لكنها مقيدة بثواب مخصوص، فاعتبار الصبر فيها إنما هو لحصول ذلك الثواب المخصوص، مثل حديث محمد بن خالد عن أبيه عن جده وكانت له صحبة " قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" **إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة فلم يبلغها بعمل ابتلاه الله في جسده أو ولده أو**

ماله، ثم صبر على ذلك حتى يبلغ تلك المنزلة لتي سبقت له من الله تعالى" [٧٣] ، وحديث سخبرة وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال صل:" **من أعطي فشكر، وابتلي فصبر، وظَلَمَ فاستغفر، وظُلِمَ فغفر، ثم سكت فقالوا يا رسول الله: ما له؟ قال: أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**" [٧٤]، هكذا زعم بعض من لقيناه أنه استقرأ الأحاديث الواردة في الصبر فوجدها لا تعدو أحد الأمرين، وليس كما قال، بل صح التقييد بالصبر مع إطلاق ما يترتب عليه من الثواب، وذلك فيما أخرجه مسلم من حديث صهيب قال:" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له** "[٧٥].

وممن جاء عنه التصريح، بأن الأجر لا يحصل بمجرد حصول المصيبة، بل إنما يحصل بها التكفير فقط، من السلف الأول أبو عبيدة بن الجراح، فروى أحمد والبخاري في " **الأدب المفرد** " وأصله في النسائي بسند

([٧٣]) صحيح أبي داود، برقم(٢٦٤٩).

([٧٤]) وضعَّفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب، برقم(١٩٨٤).

([٧٥]) صحيح مسلم، برقم(٥٣١٨).

جيد وصححه الحاكم من طريق عياض بن غطيف قال:" دخلنا على أبي عبيدة بن الجراح نعوده من شكوى أصابه وامرأته قاعدة عند رأسه قلت كيف بات أبو عبيدة؟ قالت: والله لقد بات بأجر فقال أبو عبيدة: ما بت بأجر وكان مقبلا بوجهه على الحائط فأقبل على القوم بوجهه فقال: ألا تسألونني عما قلت؟ قالوا ما أعجبنا ما قلت فنسألك عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" **من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فبسبعمائة، ومن أنفق على نفسه وأهله أو عاد مريضا، فالحسنة بعشر أمثالها والصوم جنة ما لم يخرقها، ومن ابتلاه الله ببلاء في جسده فهو له حطة**"[٧٦]، وكأن أبا عبيدة لم يسمع الحديث الذي صرَّح فيه بالأجر لمن أصابته المصيبة، أو سمعه وحمله على التقييد بالصبر، والذي نفاه مطلق حصول الأجر العاري عن الصبر.

وذكر ابن بطال أن بعضهم استدل على حصول الأجر بالمرض بحديث أبي موسى، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" **إذا مرض العبد**

([٧٦]) مسند أحمد، برقم(١٦٩٠). قال شعيب الأرناؤوط عن هذا الحديث : إسناده حسن.

أو سافر كتب الله له ما كان يعمل صحيحا مقيما"[٧٧]، فقد زاد على التكفير، وأجيب بما حاصله أن الزيادة لهذا إنما هي باعتبار نيته أنه لو كان صحيحا لدام على ذلك العمل الصالح، فتفضل الله عليه بهذه النية بأن يكتب له ثواب ذلك العمل، ولا يلزم من ذلك أن يساويه من لم يكن يعمل في صحته شيئا.

وممن جاء عنه أن المريض يكتب له الأجر بمرضه أبو هريرة رضي الله عنه ، فعند البخاري في" **الأدب المفرد** "بسند صحيح عنه أنه قال " **ما من مرض يصيبني أحب إلي من الحمى؛ لأنها تدخل في كل عضو مني، وإن الله يعطي كل عضو قسطه من الأجر**"[٧٨] ومثل هذا لا يقوله أبو هريرة برأيه.

وأخرج الطبراني من طريق محمد بن معاذ عن أبيه " عن جده أبي بن كعب أنه قال : يا رسول الله ما جزاء الحمى ؟ قال:" **تجري الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم أو ضرب عليه عرق**"، قال أبي: اللهم إني

([٧٧]) صحيح البخاري، برقم(٢٧٧٤).

([٧٨]) صحيح الأدب المفرد، للألباني، برقم(٥٠٣).

أسألك حمى لا تمنعني خروجا في سبيلك ولا خروجا إلى بيتك ولا مسجد نبيك، قال فلم يمس أبي قط إلا وبه حمى "[٧٩].

والأولى حمل الإثبات والنفي على حالين: فمن كانت له ذنوب مثلا أفاد المرض تمحيصها، ومن لم تكن له ذنوب كتب له بمقدار ذلك، ولما كان الأغلب من بني آدم وجود الخطايا فيهم أطلق من أطلق أن المرض كفارة فقط، وعلى ذلك تحمل الأحاديث المطلقة، ومن أثبت الأجر به فهو محمول على تحصيل ثواب يعادل الخطيئة، فإذا لم تكن خطيئة توفر لصاحب المرض الثواب، والله أعلم بالصواب.

وقد استبعد ابن عبد السلام في كتابه " قواعد الأحكام " حصول الأجر على نفس المصيبة، وحصر حصول الأجر بسببها في الصبر[٨٠]، وتُعُقِّبَ

---

(٧٩) المعجم الكبير، للطبراني، برقم(٣٣٨٧) ، وحسنَّه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم(٣٤٤٤).

(٨٠) حيث قال:" وقد ظن بعض الجهلة أن المصاب مأجور على مصيبته، وهذا خطأ صريح فإن المصائب ليست من كسبه بمباشرة ولا تسبب، فمن قتل ولده أو غصب ماله أو أصيب ببلاء في جسده ، فليست هذه المصائب من كسبه ولا تسببه حتى يؤجر عليها، بل إن صبر عليها كان له أجر الصابرين وإن رضي بها كان له أجر الراضين ولا يؤجر على نفس المصيبة؛ لأنها ليست من عمله" ينظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، لعز الدين ابن عبد السلام ١/ ٢٤٤.

بما رواه أحمد بسند جيد عن جابر قال:" **استأذنت الحمى على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من هذه؟ قالت: أم ملدم قال: فأمر بها إلى أهل قباء، فلقوا منها ما يعلم الله، فأتوه فشكوا ذلك إليه فقال: ما شئتم إن شئتم أن أدعو الله لكم فيكشفها عنكم، وإن شئتم أن تكون لكم طهورا قالوا: يا رسول الله أو تفعل قال نعم قالوا فدعها**"[٨١]، ووجه الدلالة منه أنه لم يؤاخذهم بشكواهم، ووعدهم بأنها طهور لهم، **قلت:** والذي يظهر أن المصيبة إذا قارنها الصبر حصل التكفير ورفع الدرجات على ما تقدم تفصيله، وإن لم يحصل الصبر، نُظِرَ إن لم يحصل من الجزع ما يذم من قول أو فعل فالفضل واسع، ولكن المنزلة منحطة عن منزلة الصابر السابقة، وإن حصل فيكون ذلك سببا لنقص الأجر الموعود به أو التكفير، فقد يستويان، وقد يزيد أحدهما على الآخر، فبقدر ذلك يقضى لأحدهما

---

[٨١] مسند أحمد، برقم(١٤٤٣٣)، قال شعيب الأرناؤوط عن هذا الحديث: رجاله رجال الصحيح وفي متنه غرابة.

على الآخر، ويشير إلى التفصيل المذكور حديث محمود بن لبيد الذي ذكرته قريبا ، والله أعلم"[٨٢].

فالابتلاء بالأمراض والأسقام التي يصاب بها الإنسان في الدنيا ، يكفِّرُ الله بها من خطاياه وسيئاته ويرفع بها درجاته في الآخرة، فليصبر المسلم وليحتسب على ما يصيبه من البلايا والنكبات التي قدرها الله عليه، وليحمد الله على كل حال ففيما اختاره الله له خير علم ذلك الإنسان أو لم يعلم.

(٨٢) فتح الباري، شرح صحيح البخاري، لابن حجر ١٦/ ١٣٢، باختصار، وتصرف يسير.

ثانياً: الابتلاء لرفع الدرجات

قد تكون للعبد منزلة عظيمة عند الله سبحانه وتعالى، لا يبلغها بأعماله؛ فيبتليه الله تعالى بما يكرهه من الأمراض والأسقام؛ حتى يتأهل لنيل تلك المنزلة ويصل إلى تلك الدرجات في الآخرة،، قال الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١٦]، فعن ابراهيم بن مهدي السلمي عن أبيه عن جده، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" **إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغها بعمله، ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده، ثم صبره على ذلك؛ حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله تعالى** "(٨٣).

وعن عبدالله بن إياس بن أبي فاطمة عن أبيه عن جده قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **من أحب أن يصح ولا يسقم؟**"، قلنا: نحن يا رسول الله، قال رسول

---

(٨٣) صحيح أبي داود، للألباني، برقم(٣٠٩٠).

الله صلى الله عليه وسلم: "مه؟!"، وعرفناها في وجهه، فقال:" **أتحبون أن تكونوا كالحمير الصيالة؟**"، قال، قالوا: يا رسول الله لا، قال:" **ألا تحبون أن تكونوا أصحاب بلاء وأصحاب كفارات؟**"، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **فوالله إن الله ليبتلي المؤمن وما يبتليه إلا لكرامته عليه، وإن له عنده منزلة ما يبلغها بشيء من عمله دون أن ينزل به من البلاء ما يبلغ به تلك المنزلة**"(٨٤).

بل إن العبد يعظِّم الله تعالى له الأجر بمقدار ما ينزل به من بلاء، فعن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:" **عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط**"(٨٥)، وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً للمؤمن الذي تصيبه البلايا في الدنيا، ومثلاً للمنافق الذي لا تنزل به البلايا، فقال صلى الله عليه وسلم:« **مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح**

---

(٨٤) التاريخ الكبير للبخاري ٧/ ١١٥ ، وطبقات ابن سعد ٨/ ٣٣٣، وضعفه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم(٢٥٩٩).

(٨٥) سنن ابن ماجة ، برقم (٤٠٣١)، وهو في صحيح الجامع الصغير، للألباني، برقم(٢١١٠).

تميله، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأَرْزِ لا تهتز حتى تُستحصد»[٨٦]، قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث:" معنى الحديث أن المؤمن كثير الآلام في بدنه أو أهله أو ماله؛ وذلك مكفر لسيئاته، ورافع لدرجاته، فالمؤمن فإن المصائب وإن آلمته وأحزنته فإنها لا يمكن أن تهزمه أو تنال من إيمانه شيئا؛ ذلك أن إيمانه بالله عاصمه من ذلك، وأما الكافر فقليلها، وإن وقع به شيء لم يكفر شيئا من سيئاته، بل يأتي بها يوم القيامة كاملة "[٨٧].

ما ينبغي أن يتذكره أهل الابتلاء

ذكر العلامة ابن القيم جملة من الأمور التي ينبغي أن يستحضرها من أصيب ببلاء أو مصيبة في هذه الدنيا، ومن هذه الآمور:

١- أن يعلم أن الذي ابتلاه بها أحكم الحاكين، وأرحم الراحمين، وأنه سبحانه لم يرسل إليه البلاء ليهلكه به، ولا ليعذبه به، ولا ليجتاحه، وإنما

([٨٦]) صحيح مسلم، برقم، (٥٠٢٤).

([٨٧]) شرح صحيح مسلم، للنووي ٩/ ١٨٦.

افتقده به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه وليسمع تضرعه وابتهاله، وليراه طريحا ببابه، لائذا بجنابه، مكسور القلب بين يديه، رافعا قصص الشكوى إليه.

٢- أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب، ولينظر يمنة فهل يرى إلا محنة؟ ثم ليعطف يسرة فهل يرى إلا حسرة ؟ وأنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى، إما بفوات محبوب، أو حصول مكروه، وأن شرور الدنيا أحلام نوم، أو كظل زائل، إن أضحكت قليلا أبكت كثيرا، وإن سرت يوما ساءت دهرا، وإن متعت قليلا منعت طويلا، ولا سرته بيوم سروره إلا خبأت له يوم شرور، قال ابن مسعود رضي الله عنه : لكل فرحة ترحة، وما مليء بيت فرحا إلا مليء ترحا، وقال ابن سيرين: "ما كان ضحك قط إلا كان من بعده بكاء".

٣- أن ينظر إلى ما أصيب به فيجد ربه قد أبقى عليه مثله أو أفضل منه، وادخر له إن صبر ورضي ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي.

٤- أن يعلم أن فوات ثواب الصبر والتسليم وهو الصلاة والرحمة والهداية التي ضمنها الله على الصبر والاسترجاع أعظم من المصيبة في الحقيقة .

٥- أن يعلم أن الجزع يشمت عدوه، ويسوء صديقه، ويغضب ربه، ويسر شيطانه، ويحبط أجره، ويضعف نفسه، وإذا صبر واحتسب أرضى ربه، وسر صديقه، وساء عدوه، وحمل عن إخوانه وعزاهم هو قبل أن يعزوه، فهذا هو الثبات والكمال الأعظم، لا لطم الخدود، وشق الجيوب، والدعاء بالويل والثبور، والسخط على المقدور.

٦- أن يعلم أن ما يعقبه الصبر والاحتساب من اللذة والمسرة أضعاف ما كان يحصل له ببقاء ما أصيب به لو بقي عليه ويكفيه من ذلك " **بيت الحمد**" [٨٨] الذي يبنى له في الجنة على حمده لربه واسترجاعه، فلينظر أي

---

[٨٨] والحديث الدال على ذلك، حديث أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ ـ قال:" إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون نعم فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد" سنن الترمذي، برقم (١٠٢١)، قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وهو في السلسلة الصحيحة، للألباني، برقم (١٤٠٨).

المصيبتين أعظم: مصيبة العاجلة، أو مصيبة فوات بيت الحمد في جنة الخلد، وقال بعض السلف: لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس.

٧- أن يعلم أن الجزع لا يرد المصيبة بل يضاعفها، وهو في الحقيقة من تزايد المرض.

٨- أن يعلم أنه لولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلا وآجلا، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يفتقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب تكون حمية له من هذه الأدواء، وحفظا لصحة عبوديته، واستفراغا للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه.

٩- أن يعلم أن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة الآخرة، يقلبها الله سبحانه، كذلك وحلاوة الدنيا بعينها مرارة الآخرة؛ ولأن ينتقل من مرارة منقطعة إلى حلاوة دائمة خير له من عكس ذلك، فإن خفي عليك هذا فانظر إلى قول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم: "**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**""[٨٩] [٩٠] "

([٨٩]) سنن الترمذي ، برقم (٢٥٥٩)، وهو في صحيح الجامع، برقم(٣١٤٧) .

رفعة درجات أهل الابتلاء في الآخرة

ولعظم الدرجات التي يرفع الله أهل البلاء في الآخرة، يتمنى أهل العافية في الدنيا لو أن أجسادهم كانت قرِّضت بالمقاريض في الدنيا، فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال:" **ليودن أهل العافية يوم القيامة أن جلودهم قرضت بالمقاريض مما يرون من ثواب أهل البلاء**"[٩١]، قال المباركفوري في شرحه لهذا الحديث:" قال الطيبي: الود محبة الشيء وتمنى كونه له، ويستعمل في كل واحد من المعنيين من المحبة والتمني، "**أهل العافية**" أي في الدنيا "**يوم القيامة**" حين يعطى الثواب لأهل البلاء كثير بلا حساب لقوله تعالى:﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [الزمر: ١٠]،"**أن جلودهم قُرِّضت بالمقاريض** " أي قطعت في الدنيا قطعة قطعة؛ ليجدوا ثواباً كما وجد أهل البلاء، وقوله ﷺ:" **لو أن جلودهم قرضت**

([٩٠]) زاد المعاد في هدي خير العباد ، لابن القيم ٤/ ١٧٣، باختصار وتصرف.

([٩١]) سنن الترمذي، برقم (٢٤٠٤، وصحح الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥/ ٢٤٠).

بالمقاريض" نزل منزلة مفعول يود، كأنه قيل يود أهل العافية لو أن جلودهم كانت مقرضة في الدنيا وهو الثواب المعطى"[٩٢].

ومن ثمرات الصبر على الابتلاء، أن الله تعالى يكرم أهل البلاء بأن بدخلهم الجنة، فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ـ قال "**يؤتى بأشد الناس كان بلاء في الدنيا من أهل الجنة، فيقول: أصبغوه صبغة الجنة، فيصبغونه فيها صبغة، فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط أو شيئا تكرهه ؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيت شيئا أكرهه قط، ثم يؤتى بأنعم الناس كان في الدنيا من أهل النار فيقول: أصبغوه فيها صبغة، فيقول: يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط ؟ فيقول : لا و عزتك ما رأيت خيرا قط** "[٩٣] .

وعن عطاء بن أبي رباح قال قال لي ابن عباس ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى قال هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ ـ قالت: إني

([٩٢]) تحفة الأحوذي، شرح سنن الترمذي، للمباركفوري (٦/ ١٩٢)، باختصار، وتصرف.

([٩٣]) مسند الإمام أحمد بأحكام الأرناؤوط ، برقم(١٣٦٨٥)، قال شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد – وهو ابن سلمة – فمن رجال مسلم ، وهو في السلسلة الصحيحة ، للألباني، برقم (١١٦٧).

أصرع وإني أتكشف فادع الله لي قال:" **إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك**" قالت: أصبر قالت: فإني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها"[٩٤].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ - يقول:" **إن الله قال إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه، فصبر عوضته منهما الجنة، يريد عينيه**"[٩٥]، قال الحافظ ابن حجر في شرحه لهذا الحديث:" قوله :" **إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه**" المراد بالحبيبتين عينيه المحبوبتان؛ لأنهما أحب أعضاء الإنسان إليه، لما يحصل له بفقدهما من الأسف على فوات رؤية ما يريد رؤيته من خير فيسر به، أو شر فيجتنبه . قوله: " **فصبر** "، والمراد أنه يصبر مستحضرا ما وعد الله به الصابر من الثواب، لا أن يصبر مجردا عن ذلك؛ لأن الأعمال بالنيات، وابتلاء الله عبده في الدنيا ليس من سخطه عليه بل إما لدفع مكروه أو لكفارة ذنوب أو لرفع منزلة، فإذا تلقى ذلك بالرضا تم له المراد وإلا يصير كما جاء في حديث سلمان" **إن مرض**

---

(٩٤) صحيح مسلم، برقم (٤٦٧٣).

(٩٥) صحيح البخاري، كتاب المرض، باب فضل من ذهب بصره، برقم (٥٢٢١).

المؤمن يجعله الله له كفارة ومستعتبا، وأن مرض الفاجر كالبعير عقله أهله ثم أرسلوه فلا يدري لم عقل ولم أرسل" [٩٦] . قوله :" **عوضته منهما الجنة**"، وهذا أعظم العوض؛ لأن الالتذاذ بالبصر يفنى بفناء الدنيا والالتذاذ بالجنة باق ببقائها، وهو شامل لكل من وقع له ذلك بشرط المذكور، ووقع في حديث أبي أمامة فيه قيد آخر " **يا بن آدم إذا أخذت كريمتيك، فصبرت عند الصدمة، واحتسبت لم أرض لك ثوابا دون الجنة**"[٩٧] فأشار إلى أن الصبر النافع هو ما يكون في أول وقوع البلاء فيفوض ويسلم، وإلا فمتى تضجر وتقلق في أول وهلة ثم يئس فيصبر لا يكون حصل المقصود، وقد وقع في حديث العرباض شرط آخر ولفظه" **إذا سلبت من عبدي كريمتيه وهو بهما ضنين لم أرض له ثوابا دون الجنة، إذا هو حمدني عليهما**"[٩٨]، وإذا كان ثواب من وقع له ذلك الجنة، فالذي له أعمال صالحة أخرى يزاد في رفعة في الدرجات"[٩٩].

([٩٦]) صحيح الأدب المفرد، برقم(٤٩٣).

([٩٧]) صحيح الأدب المفرد، برقم(٥٣٥).

([٩٨]) وهو في صحيح الترغيب والترهيب، برقم(٣٤٥٠).

([٩٩]) فتح الباري، شرح صحيح البخاري لابن حجر (١٦/ ١٤٦)

فإذ أصيب العبد ببلاء أو مصيبة، فليُوقن أن الله تعالى يحبه وأنه يريد بذلك البلاء أن يرفع درجاته وأن يُكَفِّر عنه من سيئاته، وبهذا يجد السلوى والعزاء مما نزلت به من منحن و بلاء.

ثالثاً: الابتلاء لتمييز المؤمنين من المنافين

في أوقات الرخاء، ورغد العيش، يظهر الكثير من الناس تمسُّكه بالدين ويعلن انتماءه إليه، وخاصة إذا صاحب هذا التدين الحصول على بعض المنافع الدينية أو الدنيوية، وإذا استمر الناس على هذا الحال فإنه لا يتبيَّن الصادق من الكاذب في إيمانه، ولا يعرف المؤمن من المنافق؛ وقد ذكر الله تعالى الحكم مما حصل للمؤمنين يوم أحد، ومن ذلك تمييز المؤمنين من المنافقين؛ حيث انخذلوا عن نصرة الله ورسوله يوم أحد، قال ابن إسحاق:" حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد ، انخزل عنه عبد الله بن أبي ابن سلول بثلث الناس وقال أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنا لا نرى أنه يكون قتال . قال فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه،

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الأنصار: يا رسول الله ألا نستعين بحلفائنا من يهود ؟ فقال لا حاجة لنا فيهم"[١٠٠].

وقد بيَّن الله تعالى أن هذا الابتلاء الذي حصل للمؤمنين يوم أحد أظهر المنافقين على حقيقتهم، وأظهر ما في قلوبهم على حقيقته، حتى أنهم أضحوا أقرب للكفر وأهله، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ﴾ [آل عمران: ١٦٦ – ١٦٧]، **قال الشيخ** الطنطاوي في تفسيره قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ أى: فعل الله سبحانه وتعالى ما فعل فى أُحُد ليميز المؤمنين من المنافقين؛ وذلك إن نصر المسلمين فى بدر فتح الطريق أمام المنافقين للتظاهر باعتناق الإسلام، وعدم انتصارهم فى أحد كشف عن

([١٠٠]) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٦٤، وينظر: تفسير الطبري ٧/ ٣٧٨.

هؤلاء المنافقين وأظهرهم على حقيقتهم، فإن من شأن الشدائد أنها تكشف عن معادن النفوس، وخبايا القلوب.

ثم ذكر الله تعالى بعض الحكم لما أصاب المؤمنين يوم أحد، الحكمة الأولى في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: أراد الله أن يحدث ما حدث فى غزوة أحد؛ ليظهر للناس ويميز لهم المؤمنين من غيرهم، والحكمة الثانية في قوله: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ﴾ أي علم عيان ورؤية وظهور يتميز معه عند الناس كل فريق عن الآخر تميزا ظاهرا.

ثم بيَّن الله سبحانه وتعالى بعض النصائح التي قيلت لهؤلاء المنافقين؛ حتى يقلعوا عن نفاقهم، وحكى ماردَّ به المنافقون على الناصحين فقال لهم الناصحون: ﴿ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ﴾، أي قيل للمنافقين: تعالوا معنا لتقاتلوا من أجل إعلاء كلمة الله، فإن لم تفعلوا ذلك لضعف إيمانكم، فلا أقل من أن تقاتلوا لتدفعوا عن أنفسكم وعن مدينتكم عار الهزيمة، فكان جوابهم:﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ﴾ أى قال المنافقون – وهم عبد الله بن أبى وأتباعه – لو نعلم أنكم تقاتلون حقا لسرنا معكم.

ثمَّ أصدر سبحانه وتعالى حكمه العادل على أولئك المنافقين فقال: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾، أى: هم يوم أن قالوا هذا القول الباطل قد بينوا حالهم، وهتكوا أستارهم وكشفوا عن نفاقهم لمن كان يظن أنهم مؤمنون، وقد كان المنافقون يتظاهرون بالإيمان، وما ظهرت منهم أمارة تؤذن بكفرهم، فلما انخذلوا عن عسكر المؤمنين يوم أحد، وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر، قال تعالى عنهم ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ﴾ والمعنى: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان؛ لأن تقليلهم سواد المسلمين بالانخذال فيه تقوية للمشركين، وقربهم من أهل الكفر فى هذا اليوم لوجود العلامة وهى خذلانهم للمؤمنين .

وقوله ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ﴾ أى: أن هؤلاء القوم من صفاتهم الذميمة أنهم يقولون بألسنتهم قولا يخالف ما انطوت عليه قلوبهم من كفر، وما امتلأت به نفوسهم من بغضاء للمؤمنين، وذكر الأفواه مع

القلوب؛ تصوير لنفاقهم وأن إيمانهم موجود فى أفواههم معدوم فى قلوبهم، بخلاف صفة المؤمنين فى مواطأة قلوبهم لأفواههم.

وقوله ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴾ أى: الله تعالى أعلم منكم أيها المؤمنون بما يضمره هؤلاء المنافقون من كفر ومن كراهية لدينكم؛ لأنه سبحانه يعلم ما ظهر وما خفى من أمورهم، وقد كشف الله لكم أحوالهم لكى تحذروهم، وسيحاسبهم **يوم القيامة على أعمالهم، وسينزل بهم ما يستح قونه من عذاب مهين**"[١٠١].

فالابتلاء الذي حصل للمؤمنين يوم أحد عرَّى المنافقين وأظهرهم على حقيقتهم، فقد وصفهم الله تعالى بأنهم أقرب للكفر، بخلاف أهل الإيمان الذين كانوا على النقيض من ذلك.

([١٠١]) تفسير الطنطاوي (الوسيط) صـ ٧٩٣.

.

بالابتلاء يتميز الخبيث من الطيب

فإذا كان الابتلاء يميز أهل الإيمان من أهل النفاق، فإنه كذلك يتميز به الخبيث من الطيب من أهل الإيمان، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٩] قال الشيخ المراغي في تفسيره لهذه الآية:" أي ما كان من سنن الله فى عباده أن يذر المؤمنين على مثل الحال التي كانوا عليها حين غزوة أحد، حتى يميز المؤمنين يظهر حالهم؛ لأن الشدائد هى التي تميز قوىّ الإيمان من ضعيفه، وتزيل الالتباس بين المؤمنين والمنافقين، أما تكليف ما لا مشقة فيه كالصلاة والصدقة القليلة وغيرهما فيقبلها المنافق، كما يقبلها صادق الإيمان، لما فيها من حسن الأحدوثة، والتمتع بمزايا الإسلام، وفى الشدائد من الفوائد الشيء الكثير منها:

أولاً: إنها تدفع الغرور عن نفس المؤمن، إذ يغتر المؤمن الصادق فلا يدرك ما فى نفسه من ضعف فى الاعتقاد والأخلاق حتى تمحّصه الابتلاءات والشدائد وتبيّن له حقيقة أمره.

ثانياً: اتقاء المنافق إذا علم نفاقه، فقد يفضى صادق الإيمان ببعض أسرار الملة إلى المنافق، لما يغلب عليه من حسن الظن به، حين يراه يؤدى الواجبات الظاهرة، ويشارك الصادقين فى سائر الأعمال، فإذا هو أفشاها عرف حاله وحذره المسلمون الصادقون، فيتكشف أمر المنافقين تعرف الأمة أنهم عليها لا لها، وكذلك تعرف حال ضعاف الإيمان الذين لم تربّهم الشدائد.

وقد يدور بخلد بعض الناس أن أقرب وسيلة لتمييز المؤمن الصادق من المنافق، أن يطلع الله المؤمنين على الغيب حتى يعرفوا حقائق أنفسهم وحقائق الناس الذين يعيشون بين ظهرانيهم، فيعرفوا أن فلانا من أهل الجنة، وفلانا من أهل النار، فأجاب الله عن هذا فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: لم يكن من شأنه تعالى أن يُطلع عامة الناس على الغيب،

إذ لو فعل ذلك لأخرج الإنسان من طبيعته، فإنه تعالى خلق الإنسان يحصّل رغائبه، ويدفع المكاره عنه بالعمل الكسبي الذي تهدى إليه الفطرة وترشد إليه النبوة، ومن ثم جرت سنته بأن يزيل هذا اللبس، ويميز الخبيث من الطيب بالامتحان بالشدائد، والتضحية بالنفس وبذل المال فى سبيل الحق والخير، كما ابتلى المؤمنون فى وقعة أحد بخروج العدو بجيش عظيم لمقاتلتهم، وابتلى الرماة منهم بالمخالفة، وإخلاء ظهور قومهم لعدوهم، وابتلوا بظهور العدو عليهم، جزاء ما فعلوا من المخالفة، فظهر نفاق المنافقين، وزلزل ضعفاء المؤمنين زلزالا شديدا، وثبت كملة المؤمنين، وصاروا كالجبال الرواسي التي لا تزعزعها الرياح والأعاصير.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ أي: ولكن الله يختار من رسله من يشاء، فيطلعه على ما فى قلوب المنافقين من كفر ونفاق، وعلى ما ظهر منهم من أقوال وأفعال، ويفضحهم به على رءوس الأشهاد، ويخلصكم من كيدهم وخداعهم، وفى التعبير بالاجتباء إشارة إلى أن الوقوف على أسرار الغيب منصب جليل تتقاصر عنه الهمم، ولا يؤتيه الله إلا لمن اصطفاه لهداية الأمم.

وبعد أن ردّ على ما طعن به المنافقون فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من وقوع الكوارث التي حصلت فى أحد، أمر المؤمنين بالإيمان به فقال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: فآمنوا بالله ورسله الذين ذكرهم الله فى كتابه وقصَّ علينا قصصهم، وعمَّمَ الأمر بالإيمان بالرسل جميعا مع أن سوق الكلام فى الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ للايماء إلى أن الإيمان به يقتضى الإيمان بهم؛ لأنه صلى الله عليه وسلم مصدق لما بين يديه من الرسل، وهم شهداء على صحة نبوته.

ثم قال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي وإن تؤمنوا بما جاءوا به من أخبار الغيب، مع تقوى الله بترك ما نهى عنه وفعل ما أمر به، فلكم أجر عظيم لا يُستطاع الوصول إلى معرفة كنهه، وقلَّ أن ذكر القرآن الإيمان إلا إذا قرن بالتقوى، كما قلَّ أن ذكر الصلاة إلا قرن بها الزكاة؛ حثا على عمل البر والرأفة بالفقراء والبائسين، وإشارة إلى أن الإيمان لا يكمل إلّا بهما"[١٠٢] .

([١٠٢]) تفسير المراغي ٤/ ١٤١، باختصار وتصرف.

ابتلاء من يعبدون الله على حرف

وقد أخبر الله تعالى في كتابه الكريم عن حال بعض الناس في تعاملهم مع هذا الدين، فهم يعبدون الله على حرف، فإن رأوا أن في انتمائهم لهذا الدين تتحقق مصالحهم ويصيبون منه رغد العيش، فإذا درَّ لهم الضرع وينمى لهم الزرع، قالوا: هذا الدين دين طيب..! وإن أصلبتهم الفتن والابتلاءات انقلبوا على وجوههم، وقالوا: لا خير في دين يورد أصحابه المهالك والردى، ومن الآيات القرآنية الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [الحج: ١١]، قال الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية:" أي:" ومن الناس من هو ضعيف الإيمان، لم يدخل الإيمان قلبه، ولم تخالطه بشاشته، بل دخل فيه، إما خوفا، وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن، ﴿ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ ﴾ أي: إن استمر رزقه رغدا، ولم يحصل له من المكاره شيء، اطمأن بذلك الخير، لا بإيمانه، فهذا ربما أن الله يعافيه، ولا يقيض له من الفتن ما

ينصرف به عن دينه، ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ من حصول مكروه، أو زوال محبوب ﴿ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ أي: ارتد عن دينه، ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ﴾ أما في الدنيا، فإنه لا يحصل له بالردة ما أمله الذي جعل الردة رأسا لماله، وعوضا عما يظن إدراكه، فخاب سعيه، ولم يحصل له إلاَّ ما قسم له، وأما الآخرة، فظاهر، حيث يُحرم من الجنة التي عرضها السماوات والأرض، واستحق النار، ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي: الواضح البين"(١٠٣).

ولما كان أهل الإيمان هم ورثة دعوة الله بعد الأنبياء والرسل، لهذا تجري عليهم سنة الله في الابتلاء كما جرت على أنبيائه ورسله، ومن الآيات القرآنية الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا

(١٠٣) تفسير السعدي صـ ٥٣٤.

يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾ [العنكبوت: ١ – ٤]، ولسيد قطب رحمة الله عليه بحث نفيس حول الفتنة والابتلاء استشفه من خلال تأمله لهذه الآيات، نثبته كاملاً؛ لنفاسته ولأهميته، قال رحمه الله: " وما بالله حاشا لله أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنة، ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة، فهم في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق؛ وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله أو في ثوابه، على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء، والنفس تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث، وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع، وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامداً إلا أصلبها عوداً؛ وأقواها طبيعة، وأشدها اتصالاً بالله، وثقة فيما عنده من الحسنيين: النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يسلَّمون الراية في النهاية،مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار.

وإنهم ليتسلمون الأمانة وهي عزيزة على نفوسهم بما أدوا لها من غالي الثمن؛ وبما بذلوا لها من الصبر على المحن؛ وبما ذاقوا في سبيلها من

الآلام والتضحيات، والذي يبذل من دمه وأعصابه، ومن راحته واطمئنانه، ومن رغائبه ولذاته، ثم يصبر على الأذى والحرمان؛ يشعر ولا شك بقيمة الأمانة التي بذل فيها ما بذل؛ فلا يسلمها رخيصة بعد كل هذه التضحيات والآلام، فأما انتصار الإيمان والحق في النهاية فأمر تكفل به وعد الله وما يشك مؤمن في وعد الله، فإن أبطأ فلحكمة مقدرة، فيها الخير للإيمان وأهله . وليس أحد بأغير على الحق وأهله من الله، وحسب المؤمنين الذين تصيبهم الفتنة، ويقع عليهم البلاء، أن يكونوا هم المختارين من الله، ليكونوا أمناء على حق الله، وأن يشهد الله لهم بأن في دينهم صلابة فهو يختارهم للابتلاء.

إن الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف؛ وأمانة ذات أعباء؛ وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال. فلا يكفي أن يقول الناس : آمنا وهم لا يتركون لهذه الدعوى، حتى يتعرضوا للفتنة والابتلاء، فيثبتوا ويخرجوا منهما صافية عناصرهم خالصة قلوبهم. كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به، وهذا هو أصل الكلمة اللغوي وله دلالته وظله وإيحاؤه وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب.

هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت، وسنة جارية، في ميزان الله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ ، والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء؛ ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله، مغيب عن علم البشر؛ فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم. وهو فضل من الله من جانب، وعدل من جانب، وتربية للناس من جانب، فلا يأخذوا أحداً إلا بما استعلن من أمره، وبما حققه فعله، فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه!.

ونعود إلى سنة الله في ابتلاء الذين يؤمنون وتعريضهم للفتنة؛ حتى يعلم الذين صدقوا منهم ويعلم الكاذبين، إن الإيمان أمانة الله في الأرض، لا يحملها إلا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة، وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص. ولا يحملها وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة، وعلى الأمن والسلامة، وعلى المتاع والإغراء . وإنها لأمانة الخلافة في الأرض، وقيادة الناس إلى طريق الله، وتحقيق كلمته في عالم الحياة. فهي أمانة كريمة؛

وهي أمانة ثقيلة؛ وهي من أمر الله يضطلع بها الناس؛ ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص من الناس يصبرون على الابتلاء.

ومن الفتنة والابتلاء أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله؛ ثم لا يجد النصير الذي يسانده ويدفع عنه، ولا يملك النصرة لنفسه ولا المنعة؛ ولا يجد القوة التي يواجه بها الطغيان. وهذه هي الصورة البارزة للفتنة، المعهودة في الذهن حين تذكر الفتنة، ولكنها ليست أعنف صور الفتنة، فهناك فتن كثيرة في صور شتى، ربما كانت أمر وأدهى .

هناك فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه، وهو لا يملك عنهم دفعاً، وقد يهتفون به ليُسالِم أو ليَسْتَسْلِم؛ وينادونه باسم الحب والقرابة، واتقاء الله في الرحم التي يعرضها للأذى أو الهلاك، وقد أشير في هذه السورة إلى لون من هذه الفتنة مع الوالدين وهو شاق عسير[١٠٤] .

---

(١٠٤) وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[العنكبوت: ٨].

وهناك فتنة إقبال الدنيا على المبطلين، ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين، تهتف لهم الدنيا، وتصفق لهم الجماهير، وتتحطم في طريقهم العوائق، وتصاغ لهم الأمجاد، وتصفو لهم الحياة، وهو مهمل منكر لا يحس به أحد، ولا يحامي عنه أحد ، ولا يشعر بقيمة الحق الذي معه إلا القليلون من أمثاله الذين لا يملكون من أمر الحياة شيئاً.

وهنالك فتنة الغربة في البيئة والاستيحاش بالعقيدة، حين ينظر المؤمن فيرى كل ما حوله وكل من حوله غارقاً في تيار الضلالة؛ وهو وحده موحش غريب طريد

وهناك فتنة من نوع آخر قد نراها بارزة في هذه الأيام، فتنة أن يجد المؤمن أمماً ودولاً غارقة في الرذيلة، وهي مع ذلك راقية في مجتمعها، متحضرة في حياتها، يجد الفرد فيها من الرعاية والحماية ما يناسب قيمة الإنسان، ويجدها غنية قوية، وهي مشاقة لله!.

وهنالك الفتنة الكبرى، أكبر من هذا كله وأعنف، فتنة النفس والشهوة، وجاذبية الأرض، وثقلة اللحم والدم، والرغبة في المتاع والسلطان، أو في الدعة والاطمئنان، وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على

مرتقاه، مع المعوقات والمثبطات في أعماق النفس، وفي ملابسات الحياة، وفي منطق البيئة، وفي تصورات أهل الزمان!

فإذا طال الأمد، وأبطأ نصر الله، كانت الفتنة أشد وأقسى، وكان الابتلاء أشد وأعنف، ولم يثبت إلا من عصم الله، وهؤلاء هم الذين يحققون في أنفسهم حقيقة الإيمان، ويؤتمنون على تلك الأمانة الكبرى، أمانة السماء في الأرض، وأمانة الله في ضمير الإنسان .

وأما الذين يفتنون المؤمنين، ويعملون السيئات، فما هم بمفلتين من عذاب الله ولا ناجين. مهما انتفخ باطلهم وانتفش، وبدا عليه الانتصار والفلاح. وعد الله كذلك وسنته في نهاية المطاف: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ فلا يحسبن مفسد أنه مفلت ولا سابق، ومن يحسب هذا فقد ساء حكمه ، وفسد تقديره ، واختل تصوره . فإن الله الذي جعل الابتلاء سنة؛ ليمتحن إيمان المؤمن ويميز بين الصادقين والكاذبين؛ هو الذي جعل أخذ المسيئين سنة لا تتبدل ولا تتخلف ولا تحيد . وهذا هو الإيقاع الثاني في مطلع السورة ، الذي يوازن الإيقاع الأول

ويعادله، فإذا كانت الفتنة سنة جارية لامتحان القلوب وتمحيص الصفوف، فخيبة المسيئين وأخذ المفسدين سنة جارية لا بد أن تجيء "[١٠٥].

الرسول صلى الله عليه وسلم يواسي أصحابه عند الابتلاء

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يواسي أصحابه المؤمنين الذين كانوا يأتون إليه يشكون له ما يحصل لهم من ابتلاء وأذى من قبل أهل الكفر والشرك، فعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برد له في ظل الكعبة فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال" قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون"[١٠٦]، قال الحافظ ابن حجر في شرحه

([١٠٥]) في ظلال القرآن، لسيد قطب، ٥/ ٤٥٠، بتصرف واختصار.

([١٠٦]) صحيح البخاري، برقم(٦٤٣٠).

لهذا الحديث:" طلب خباب الدعاء من النبي صلى الله عليه وسلم على الكفار دال على أنهم كانوا قد اعتدوا عليهم بالأذى ظلما وعدوانا، قال ابن بطال: إنما لم يجب النبي صلى الله عليه وسلم سؤال خباب ومن معه بالدعاء على الكفار؛ لأنه علم أنه قد سبق القدر بما جرى عليهم من البلوى ليؤجروا عليها كما جرت به عادة الله تعالى في من اتبع الأنبياء فصبروا على الشدة والبلاء في ذات الله، ثم كانت لهم العاقبة بالنصر وجزيل الأجر، أما غير الأنبياء فواجب عليهم الدعاء عند كل نازلة؛ لأنهم لم يطلعوا على ما اطلع عليه النبي ﷺ - وليس في الحديث تصريح بأنه ﷺ - لم يدع لهم بل يحتمل أنه دعا، وإنما قال " قد كان من قبلكم يؤخذ إلخ " تسلية لهم وإشارة إلى الصبر حتى تنقضى المدة المقدورة، وإلى ذلك الإشارة بقوله في آخر الحديث " ولكنكم تستعجلون "[١٠٧].

وقد ذكر ابن بطال في تعليقه على هذا الحديث، جملة من الأحكام الفقهية التي قد يحتاجها المسلم إذا وقع في محنة وابتلاء، قال رحمه الله

([١٠٧]) فتح الباري، شرح صحيح البخاري، لابن حجر ١٩/ ٤٠٢.

تعالى:" أجمع العلماء أن من أكره على الكفر فاختار القتل أنه أعظم أجرًا عند الله ممن اختار الرخصة، واختلفوا فيمن أكره على غير الكفر من فعل ما لا يحل له، فقال أصحاب مالك: الأخذ بالشدة فى ذلك، واختيار القتل والضرب أفضل عند الله من الأخذ بالرخصة، ذكره ابن حبيب وسحنون، وذكر ابن سحنون عن أهل العراق، أنه إذا تهدد بقتل أو بقطع أو ضرب يخاف منه التلف حتى يشرب الخمر أو يأكل الخنزير فذلك له، فإن لم يفعل حتى قتل أن يكون آثمًا، وهو كالمضطر إلى أكل الميتة وشرب الخمر غير باغ ولا عاد، فإن خاف على نفسه الموت فلم يأكل ولم يشرب أثم.

وقال مسروق: من اضطر إلى شئ مما حرم الله عليه فلم يأكل ولم يشرب حتى مات دخل النار. قالوا: ولا يشبه هذا الكفر وقتل المسلم؛ لأن فى هذا رخصة وتركه أفضل، ولم يجعل فى الضرورة حلالا. قال سحنون: إذا لم يشرب الخمر ولم يأكل الخنزير حتى قتل كان أعظم لأجره كالكفر؛ لأن الله تعالى أباح له الكفر ضرورة الإكراه، وأباح له الميتة والدم بضرورة الحاجة إليهما، وأجمعا أن له ترك الرخصة فى قول الكفر، فكذلك يلزم

مخالفنا أن يقول فى ترك الرخصة فى الميتة ولحم الخنزير، ولا يكون معينًا على نفسه.

وقد تناقض الكوفيون فى هذا فقالوا كقولنا فى المكره توعد بقطع عضو أو قتل على أن يأخذ مالا لفلان فيدفعه إلى فلان أنه فى سعة من ذلك؛ لأنه كالمضطر ويضمن الآمر، ولا ضمان على المأمور، فإن أبى أن يأخذ حتى قتله كان عندنا فى سعة. فيقال لهم: هذا مال مسلم قد أحللتموه بالإكراه؛ فلم لا يسعه ترك أكل الميتة حتى يقتل كما وسعه أخذ مال المسلم فى الإكراه حتى يقتل.

وحديث خباب حجة لأصحاب مالك؛ لوصفه ﷺ - عن الأمم السالفة من كان يمشط لحمه بأمشاط الحديد، ويشق بالمناشر بالشدة فى دينه والصبر على المكروه فى ذات الله، ولم يكفروا فى الظاهر ويبطنوا الإيمان، ليدفعوا العذاب عن أنفسهم؛ فمدحهم، وكذلك حديث أنس[١٠٨] سوى فيه النبي ﷺ

([١٠٨]) يشير إلى حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه والذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم:" ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار"، صحيح البخاري، برقم (١٥).

ـ بين كراهية المؤمن الكفر وكراهيته لدخول النار، وإذا كان هذا حقيقة الإيمان، فلا مخالفة أن الضرب والهوان والقتل عند المؤمن أسهل من دخول النار، فينبغي أن يكون ذلك أسهل من الكفر إن اختار الأخذ بالشدة على نفسه، قال المهلب: وقد اعترض هذا قوم بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء: ٢٩] ولا حجة لهم فى الآية؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ ﴾ [النساء: ٣٠] [النساء: ٣]، والعدوان والظلم محرمان، وليس من أهلك نفسه فى طاعة الله بعاد ولا ظالم، ولو كان كما قالوا لما جاز لأحد أن يقتحم المهالك فى الجهاد، وقد افترض على كل مسلم مقارعة رجلين من الكفار ومبارزتهما، وهذا من أبين المهلكات والغرر. ومن فر من اثنين فقد أكبر المعصية وتعرض لغضب الله "[١٠٩].

فالابتلاء ملازم لأهل الايمان، يمتحن الله بذلك صدق ايمانهم؛ ليتميز الخبيث من الطيب، والمؤمن من المنافق، فليوطن المسلم نفسه على

([١٠٩]) شرح صحيح البخاري، لابن بطال، ١٥/ ٣٢٢.

تلقي الابتلاء، وليصبر وليحتسب، وليعلم أن الله تعالى ما بتلاه إلا ليرفع بذلك درجاته في الدنيا والآخرة، وبعد أن يميِّزَ الله المؤمنين من المنافقين، فإن أهل الإيمان قد تصدر منهم بعض المعاصي والسيئات عند ذلك يحاسبهم الله تعالى على ذلك، وهو ما سوف نتناوله في الهدف من أهداف الابتلاء.

رابعاً: الابتلاء لتأديب المؤمنين ومحاسبتهم

في الخامس عشر من شهر شوال من السنة الثالثة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم كانت غزوة أحد[١١٠]، أما سبب هذه الغزوة فقد ذكره الإمام ابن هشام في سيرته، حيث قال:" لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب، ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، في رجال من قريش، ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان بن حرب، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمدا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا، ففعلوا"[١١١] .

ابتلاء الله تعالى للمؤمنين في غزوة أحد

ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه باستعدادات كفار قريش وعزمهم على غزو المدينة ودخولها، استشعروا حجم الخطر الذي

---

(١١٠) السيرة النبوية، ابن كثير ٥/ ٢٢.

(١١١) السيرة النبوية، لابن هشام ٢/ ٤٥٦.

يهددهم إن هم انتظروا حتى يدخل أهل الكفر المدينة، وبعد المشاورة كان رأي الأغلبية الخروج من المدينة لقتال الكفار، وما تهيب المسلمون المواجهة والقتال خوفا من الموت؛ لأنهم يعلمون أن الله تعالى مبتلييهم بالجهاد في سبيله، وأن مسألة الموت والحياة بيد الله تعالى وحده، وأن الجهاد في سبيل الله ليس سبباً محتماً للموت، وأن الله تعالى إذا كتب على أحد الموت فسوف يأتيه أجله ولوكان على فراشه وفي بيته، وقد وصف الله تعالى ذلك تعليقاً على ما حصل للمؤمنين من ابتلاء يوم أحد، قال تعالى :﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾[آل عمران: ١٥٤]، قال سيد قطب في تفسيره لهذه الآية:" قوله تعالى:﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ

طَآئِفَةَ مِّنكُمۡ ﴾ النعاس ظاهرة عجيبة تشي برحمة الله التي تحف بعباده المؤمنين الصادقين؛ فالنعاس حين يلم بالمجهدين المرهقين المفزعين ولو لحظة واحدة يفعل في كيانهم فعل السحر ويردهم خلقاً جديداً، ويسكب في قلوبهم الطمأنينة كما يسكب في كيانهم الراحة، بطريقة مجهولة الكنه والكيف! أقول هذا وقد جربته في لحظة كرب وشدة، فأحسست فيه برحمة الله الندية العميقة بصورة تعجز عن وصفها العبارة البشرية القاصرة!.

أما الطائفة الأخرى؛ فهم ذوو الإيمان المزعزع الذين شغلتهم أنفسهم، والذين لم تطمئن قلوبهم إلى أن ما أصابهم إنما هو ابتلاء للتمحيص قال الله تعالى عنهم: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖ ﴾، فالذين تهمهم أنفسهم وتصبح محور تفكيرهم وتقديرهم ومحور اهتمامهم وانشغالهم، فهؤلاء لم تكتمل في نفوسهم حقيقة الإيمان، ومن هؤلاء كانت تلك الطائفة الأخرى التي يتحدث عنها القرآن في هذا الموضع، طائفة الذين شغلتهم أنفسهم وأهمتهم فهم في قلق يحسون أنهم مضيعون في أمر غير واضح في تصورهم، ويرون أنهم

دُفِعوا إلى المعركة دفعاً ولا إرادة لهم فيها؛ وهم مع ذلك يتعرضون للبلاء المرير ويؤدون الثمن فادحاً من القتل والقرح والألم، إنهم يتساءلون: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾، ويتضمن تساؤلهم هذه الاعتراض على خطة القيادة والمعركة، ولعلَّهم ممن كان رأيهم عدم الخروج من المدينة؛ وسؤالهم هذا يخفي وراءه شعورهم بأنهم دفعوا إلى مصير لم يختاروه! وأنهم ضحية سوء القيادة وأنهم لو كانوا هم الذين يديرون المعركة ما لاقوا هذا المصير، فهم يتساءلون ويرد الله على تساؤلهم قائلا: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ﴾ ، فلا أمر لأحد لا لهم ولا لغيرهم، فأمور هذا الدين والجهاد لإقامته وتقرير نظامه في الأرض وهداية القلوب له، كلها من أمر الله وليس للبشر فيها من شيء إلا أن يؤدوا واجبهم ويفوا ببيعتهم ثم يكون ما يشاؤه الله كيف يكون! .

ويكشف كذلك خبيئة نفوسهم قبل أن يكمل عرض وساوسهم وظنونهم، ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾ . فنفوسهم ملأى بالوساوس والهواجس حافلة بالاعتراضات والاحتجاجات ﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾، وهو الهاجس الذي يجيش في النفوس التي لم تخلص للعقيدة

حينما تصطدم في موقعة بالهزيمة وحينما تعاني آلام الابتلاء بالهزيمة! حين ترى الثمن أفدح مما كانت تظن، وأن الثمرة أشد مرارة مما كانت تتوقع ، وحين تتخيل أن تصرُّف القيادة هو الذي القى بها في هذه المهلكة وكانت في نجوة من الأمر لو كان أمرها في يدها! وهي بهذا الغبش في التصور لا يمكن ما وراء الأحداث ولا حكمته في الابتلاء، إنما المسألة كلها – في اعتبارها – خسارة في خسارة! وضياع في ضياع!.

هنا يجيئهم التصحيح العميق للأمر كله، لأمر الحياة والموت، ولأمر الحكمة الكامنة وراء الابتلاء ﴿ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤ ﴾، قل لو كنتم في بيوتكم، ولم تخرجوا للمعركة تلبية لنداء القيادة وكان أمركم كله لتقديركم، لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، إن هنالك أجلاً مكتوباً لا يستقدم ولا يستأخر، إنه قدر الله ووراءه حكمته: ﴿ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ ﴾، فليس كالمحنة محك يكشف ما في الصدور ويصهر ما في القلوب فينفي

عنها الزيف والرياء ويكشفها على حقيقتها بلا طلاء، فهو الابتلاء والاختبار لما في الصدور ليظهر على حقيقته وهو التطهير والتصفية للقلوب فلا يبقى فيها دخل ولا زيف، وهو التصحيح والتجلية للتصور؛ فلا يبقى فيه غبش ولا خلل.

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ وذات الصدور هي الأسرار الخفية الملازمة للصدور المختبئة فيها المصاحبة لها والله عليم بذات الصدور هذه، ولكنه – سبحانه – يريد أن يكشفها للناس ويكشفها لأصحابها أنفسهم فقد لا يعلمونها من أنفسهم حتى تنفضها الأحداث وتكشفها لهم!، ولقد علم الله دخيلة الذين هزموا وفروا يوم التقى الجمعان في الغزوة، إنهم ضعفوا وتولوا بسبب معصية ارتكبوها؛ فظلت نفوسهم مزعزعة بسببها فدخل عليهم الشيطان من ذلك المنفذ واستزلهم فزلوا وسقطوا"[١١٢].

([١١٢]) في ظلال القرآن ، لسيد قطب١/ ٤٧٠، باختصار وتصرف.

مخالفة الأوامر من أسباب الابتلاء

في غزوة أحد كان النبي صلى الله عليه وسلم قد وضع خطة لإدارة هذه المعركة، ولما بدأت كفة المعركة تميل لصالح المؤمنين، خالف بعض المسلمين توجيهات النبي صلى الله عليه وسلم وعصوا أمره وأخلوا مواقعهم، فتحول النصر إلى ما يشبه الهزيمة للمسلمين، وهنا كان لابد للمؤمنين من أن يحصل لهم ابتلاء، والهدف منه التأديب والمحاسبة؛ حتى لا يكرروا مثل هذا التصرف في معركة قادمة، وقد وصف البراء ابن عازب ما حصل للمؤمنين من ابتلاء في غزوة أحد؛ بسبب مخالفة البعض منهم الأوامر النبي صلى الله عليه وسلم، حيث قال:" جعل النبي صلى الله عليه وسلم على الرجالة يوم أحد وكانوا خمسين رجلا عبد الله بن جبير فقال:" **إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم**" قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خلاخلهن وأسوقهن رافعات ثيابهن فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة أي قوم الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله

عليه وسلم؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين، فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم غير اثني عشر رجلا فأصابوا منا سبعين، وكان النبي ﷺ - وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة، سبعين أسيرا وسبعين قتيلا فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد ثلاث مرات؟ فنهاهم النبي ﷺ - أن يجيبوه، ثم قال أفي القوم ابن أبي قحافة ثلاث مرات؟ ثم قال أفي القوم ابن الخطاب ثلاث مرات؟ ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا فما ملك عمر نفسه فقال: كذبت والله يا عدو الله إن الذين عددت لأحياء كلهم وقد بقي لك ما يسوءك، قال يوم بيوم بدر والحرب سجال، وإنكم ستجدون في القوم مُثْلة لم آمر بها ولم تسؤني، ثم أخذ يرتجز: أعل هبل أعل هبل، قال النبي صلى الله عليه وسلم:" **ألا تجيبوا له**" ؟ قالوا يا رسول الله ما نقول؟ قال:" **قولوا الله أعلى وأجل**" قال إن لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:" **ألا تجيبوا له**" ؟ قال قالوا يا رسول الله ما نقول قال" **قولوا الله مولانا ولا مولى لكم**"[١١٣].

([١١٣]) صحيح البخاري، برقم(٢٨١٢).

وقد ذكر الحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث بعض الدروس المستفادة من الابتلاء الذي أصيب به المسلمون في غزوة أحد، حيث قال رحمه الله:" وكان في قصة أحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة: **منها أن عادة** الرسل أن تبتلى وتكون لها العاقبة، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائما دخل في المؤمنين من ليس منهم ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائما لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين؛ لتمييز الصادق من الكاذب؛ وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفيا عن المسلمين، فلما جرت هذه القصة وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول عاد التلويح تصريحا، وعرف المسلمون أن لهم عدوا في دورهم فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم.

ومنها تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية وشؤم ارتكاب النهي، لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول أن لا يبرحوا منه.

ومنها أن في تأخير النصر في بعض المواطن؛ هضما للنفس وكسرا لشماختها، فلما ابتلي المؤمنون صبروا وجزع المنافقون.

ومنها أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها.

ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم.

ومنها أنه أراد إهلاك أعدائه فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه، فمحص بذلك ذنوب المؤمنين، ومحق بذلك الكافرين، وروى ابن أبي حاتم من طريق المسور بن مخرمة قال: قلت لعبد الرحمن بن عوف أخبرني عن قصتكم يوم أحد، قال: اقرأ العشرين ومائة من آل عمران تجدها: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾، [آل عمران: ١٢١ ـ ١٥٤] "[١١٤].

([١١٤]) فتح الباري، شرح صحيح البخاري، لابن حجر، ١١/ ٣٧٢، باختصار وتصرف.

تأديب الله تعالى للمؤمنين في غزوة أحد

وقد أنزل الله تعالى في شأن غزوة أحد آيات تتلى من سورة آل عمران، وقد ذكر الله تعالى فيها ما حصل للمؤمنين من تأديب وابتلاء بسبب مخالفتهم لأوامر النبي صلى الله وتوجيهاته المتعلقة بهذه الغزوة، وقد سطر الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة في كتابه الكريم؛ ليبقى هذا الدرس ماثلا للعيان أمام المؤمنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، قال سيد قطب في ظلاله:" قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ وكان ذلك في مطالع المعركة حيث بدأ المسلمون يحسون المشركين أي يخمدون حسهم أو يستأصلون شأفتهم، قبل أن يلهيهم الطمع في الغنيمة، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ

بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾، وهو تقرير لحال الرماة، وقد ضعف فريق منهم أمام إغراء الغنيمة، ووقع النزاع بينهم وبين من يرون الطاعة المطلقة لأمر رسول الله ﷺ - وانتهى الأمر إلى العصيان. بعد ما رأوا بأعينهم طلائع النصر الذي يحبونه، فكانوا فريقين: فريقا يريد غنيمة الدنيا وفريقا يريد ثواب الآخرة، وتوزعت القلوب فلم يعد الصف وحدة ولم يعد الهدف واحدا، وشابت المطامع جلاء الإخلاص والتجرد الذي لا بد منه في معركة العقيدة، فمعركة العقيدة ليست ككل معركة، إنها معركة في الميدان ومعركة في الضمير، ولا انتصار في معركة الميدان دون الانتصار في معركة الضمير، إنها معركة لله فلا ينصر الله فيها إلا من خلصت نفوسهم له. وما داموا يرفعون راية الله وينتسبون إليها فإن الله لا يمنحهم النصر إلا إذا محصهم ومحضهم للراية التي رفعوها؛ كي لا يكون هناك غش ولا دخل ولا تمويه بالراية.

ولقد يغلب المبطلون الذين يرفعون راية الباطل صريحة في بعض المعارك – لحكمة يعلمها الله – أما الذين يرفعون راية العقيدة ولا يخلصون لها إخلاص التجرد فلا يمنحهم الله النصر أبدا حتى يبتليهم فيتمحصوا

ويتمحضوا، وهذا ما يريد القرآن أن يجلوه للجماعة المسلمة بهذه الإشارة إلى موقفهم في المعركة وهذا ما أراد الله سبحانه أن يعلمه للجماعة المسلمة وهي تتلقى الهزيمة المريرة والقرح الأليم ثمرة لهذا الموقف المضطرب المتأرجح!، ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ﴾، والقرآن يسلط الأضواء على خفايا القلوب التي ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها في قلوبهم، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما كنت أرى أن أحدا من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحد: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴾، وبذلك يضع قلوبهم أمامهم مكشوفة بما فيها؛ ويعرفهم من أين جاءتهم الهزيمة ليتقوها! وفي الوقت ذاته يكشف لهم عن طرف من حكمة الله وتدبيره، وراء هذه الآلام التي تعرضوا لها؛ ووراء هذه الأحداث التي وقعت بأسبابها الظاهرة: ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ ﴾.

لقد كان هناك قدر الله وراء أفعال البشر، فلما أن ضعفوا وتنازعوا وعصوا صرف الله قوتهم وبأسهم وانتباههم عن المشركين وصرف الرماة

عن ثغرة الجبل وصرف المقاتلين عن الميدان فلاذوا بالفرار، وقع كل هذا مرتبا على ما صدر منهم؛ ولكن مدبرا من الله **ليبتليهم**، ليبتليهم بالشدة والخوف والهزيمة والقتل والقرح؛ وما يتكشف عنه هذا كله من كشف مكنونات القلوب.

ومن تمحيص النفوس وتمييز الصفوف، وهكذا تقع الأحداث مرتبة على أسبابها وهي في الوقت ذاته مدبرة بحسابها، بلا تعارض بين هذا وذاك، فلكل حادث سبب ووراء كل سبب تدبير، من اللطيف الخبير، ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ عفا عما وقع منكم من ضعف ومن نزاع ومن عصيان، وعفا كذلك عما وقع منكم من فرار وانقلاب وارتداد، عفا عنكم فضلا منه ومنة وتجاوزا عن ضعفكم البشري الذي لم تصاحبه نية سيئة ولا إصرار على الخطيئة، عفا عنكم؛ لأنكم تخطئون وتضعفون في دائرة الإيمان بالله والاستسلام له وتسليم قيادكم لمشيئته: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ومن فضله عليهم أن يعفو عنهم ما داموا سائرين على منهجه مقرين بعبوديتهم له؛ لا يدعون من خصائص الألوهية شيئا لأنفسهم ولا

يتلقون نهجهم ولا شريعتهم ولا قيمهم ولا موازينهم إلا منه، فإذا وقعت منهم الخطيئة وقعت عن ضعف وعجز أو عن طيش ودفعة، فيتلقاهم عفو الله بعد الابتلاء والتمحيص والخلاص"[١١٥].

من حِكَمْ ابتلاء المؤمنين يوم أحد

وقد ذكر العلامة ابن القيم الحِكَم العامة لما حصل للمؤمنين من ابتلاء في غزوة أحد، قال رحمه الله تعالى، قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾[آل عمران: ١٥٤]،" أخبر سبحانه عن حكم هذا التقدير الذي حصل للمؤمنين يوم أحد، ومنها ابتلاء ما في صدورهم، واختبار ما فيها من الإيمان والنفاق، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾فالمؤمن لا يزداد بذلك إلا إيمانا وتسليما، والمنافق ومن في قلبه مرض، لابد أن يظهر ما في قلبه على جوارحه ولسانه.

([١١٥]) في ظلال القرآن، لسيد قطب ١/ ٤٦٨.

ثم ذكر سبحانه وتعالى حكمة أخرى، وهو تمحيص ما في قلوب المؤمنين وهو تخليصه وتنقيته وتهذيبه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ فإن القلوب يخالطها، بغلبات الطبائع، واستيلاء الغفلة، وتزيين الشيطان، ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى، فلو تركت في عافية دائمة مستمرة، لم تتخلص من هذه المخالطة، ولم تتمحص منه، فاقتضت حكمة العزيز أن قيض لها من المحن والبلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء، إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده، وإلا خيف عليه منه الفساد والهلاك فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة، تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم، فله عليهم النعمة التامة في هذا وهذا.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن تولي من تولى من المؤمنين الصادقين في ذلك اليوم، وأنه بسبب كسبهم وذنوبهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ ﴾ فاستزلهم الشيطان بتلك الأعمال حتى تولوا، فكانت أعمالهم جندا عليهم،

أزداد بها عدوهم قوة، فإن الأعمال جند للعبد وجند عليه، ولا بد فللعبد كل وقت سرية من نفسه تهزمه، أو تنصره، فهو يمد عدوه بأعماله من حيث يظن أنه يقاتله بها، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه فأعمال العبد تسوقه قسرا إلى مقتضاها من الخير والشر، والعبد لا يشعر أو يشعر ويتعامى.

ففرار الإنسان من عدوه، وهو يطيقه إنما هو بجند من عمله، بعثه له الشيطان واستزله به، ثم أخبر سبحانه أنه عفا عنهم، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[آل عمران: ١٥٥]؛ لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق ولاشك وإنما كان عارضا، عفا الله عنه، فعادت شجاعة الإيمان وثباته إلى مركزها ونصابها.

ثم كرر عليهم سبحانه أن هذا الذي أصابهم إنما أتوا فيه من قبل أنفسهم، وبسبب أعمالهم، فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وختم الآية الأولى بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ

﴿ ١٦٥ ﴾، بعد قوله: ﴿ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ إعلاما لهم بعموم قدرته مع عدله وأنه عادل قادر، وفي ذلك إثبات القدر والسبب، فذكر السبب، وأضافه إلى نفوسهم، وذكر عموم القدرة أضافها إلى نفسه، فالأول ينفي الجبر، والثاني ينفي القول بإبطال القدر.

ثم اخبر عن حكمة هذا التقدير، وهي إن يعلم المؤمنين من المنافقين، ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ ﴾ [آل عمران: ١٦٦ – ١٦٧]، علم عيان ورؤية يتميز فيه أحد الفريقين من الآخر تميزا ظاهرا وكان من حكمة هذا التقدير تكلم المنافقين بما في نفوسهم، فسمعه المؤمنون، وسمعوا رد الله عليهم وجوابه لهم، وعرفوا مؤدي النفاق وما يؤول إليه، وكيف يحرم صاحبه سعادة الدنيا والآخرة، فيعود عليه بفساد الدنيا"[١١٦].

فإذا أمر الله تعالى ورسوله بأمر فإنه مطلوب من المؤمنين سرعة الاستجابة لأمر الله ورسوله؛ لأن استجابتهم هذه دليل على إيمانهم الصادق

([١١٦]) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، ٣/ ٢١٣، باختصار، وتصرف.

بالله والمخالفة في هذا الجانب تعرضهم للفتنة والابتلاء قال تعالى:﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور: ٦٣].

خامساً: الابتلاء للتمكين في الأرض

"سأل رجل الشافعي فقال: يا أبا عبد الله، أيما أفضل للرجل أن يُمَكَّن أو يبتلى؟ فقال الشافعي: لا يُمَكَّن حتى يبتلى؛ فإن الله ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مَكَّنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم ألبتة"(١١٧).

تمكين الله تعالى لعباده المؤمنين في الأرض يسبقه ابتلاء الله لهم؛ حتى يعلم الله الصادق من الكاذب في إيمانه، وحتى يتنقى الصف المؤمن من ضعاف الإيمان ومن المنافقين، وتزداد وطئة هذا الابتلاء للأخيار العاملين لدين الله عزَّوجل؛ وهذا ما حصل للجماعة المؤمنة في زمان النبي صلى الله عليه وسلم، فقد مكَّن الله تعالى لهم في الأرض بعد أن أصابتهم ابتلاءات كثيرة، وهذا تحقيقا لوعد الله القائل: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا

---

(١١٧) الفوائد، لابن القيم صـ ٢٢٩.

يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ [النور: ٥٥]، قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية :" هذا وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمةَ الناس والولاةَ عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، ولَيُبدلَنّ بعد خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك وله الحمد والمنة، فإنه لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مَجُوس هَجَر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية –وهو المقوقس –وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تَملَّك بعد أصْحَمة، رحمه الله وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فَلَمّ شَعَث ما وَهَى عند موته، عليه الصلاة والسلام وأطَّدَ جزيرة العرب ومهدها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد، رضي الله عنه، ففتحوا طرفا منها، وقتلوا خلقا من أهلها. وجيشا آخر صحبة أبي عبيدة، رضي الله

عنه، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثًا صحبة عمرو بن العاص، رضي الله عنه، إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بُصرى ودمشق ومَخَاليفهما من بلاد حَوران وما والاها، وتوفاه الله عز وجل، واختار له ما عنده من الكرامة.

ومَنّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قياما تاما، لم يَدُر الفلك بعد الأنبياء عليهم السلام على مثله، في قوة سيرته وكمال عدله. وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكَسَّر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقَصَّر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينة، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر ذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولة العثمانية، امتدت المماليك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك: الأندلس، وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سَبْتَةَ مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى، وباد ملكه

بالكلية. وفتحت مدائن العراق، وخراسان، والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجُبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه. وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن؛ فعن ثوبان، رضي الله عنه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "**إن الله زَوَى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوي لي منها**" [١١٨] فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فنسأل الله الإيمان به، وبرسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا"[١١٩].

فهذه الآية دلَّت على أن الله تعالى قد مَكَّن لعباده المؤمنين واستخلافهم، عندما تمسكوا بدينه فعبدوه الله وحدة ولم يشركوا به شيئاً، فأقاموا الصلاة في الأرض وآتوا الزكاة، وهذا الوعد قائم للمسلمين في كل زمان ومكان،

([١١٨]) صحيح مسلم برقم (٢٨٨٩) .

([١١٩]) تفسير ابن كثير – ٦/ ٧٨).

الابتلاء الحسن

وقد أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أن التمكين في الأرض للصاحين بعد الاستضعاف بحد ذاته هو بلاء حسن من الله تعالى، قال تعالى:﴿ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٧ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٨ ﴾ [الأنفال: ١٧ – ١٨]، قال الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية:" يقول تعالى لنبيه صلى الل عليه وسلم:" لست بقوتك حين رميت التراب أوصلته إلى أعينهم، وإنما أوصلناه إليهم بقوتنا واقتدارنا ﴿ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ ﴾أي: إن اللّه تعالى قادر على انتصار المؤمنين من الكافرين، من دون مباشرة قتال، ولكن اللّه أراد أن يبتلي المؤمنين، ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجراً حسنا وثواباً جزيلا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يسمع تعالى ما أسر به العبد وما أعلن، ويعلم ما في قلبه من النيات الصالحة وضدها، فيقدر على العباد

أقدارا موافقة لعلمه وحكمته ومصلحة عباده، ويجزي كلا بحسب نيته وعمله"[١٢٠].

وقال الإمام الشوكاني:" والإشارة في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ إلى البلاء الحسن، أي: إن الغرض منه سبحانه بما وقع مما حكته الآيات السابقة، ابتلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين"[١٢١].

التمكين في الأرض ليوسف عليه السلام

وممن مكّنَ الله له في الأرض بعد الابتلاء نبي الله يوسف عليه السلام، وقد تعرَّض يوسف عليه السلام لأنواع من الابتلاءات والمحن ، بعضها جاءته من إخوته، وبعضها من امرأة العزيز، وبعضها حصل عليها من السجن ومراراته، ثم جاءه بعد ذلك من الله تعالى العز والتمكين فى الأرض وقد ذكر الله تعالى لنا في كتابه الكريم تمكينه لنبيه يوسف في الأرض في عدة آيات، ومن هذه الآيات قوله تعالى:"﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ

---

(١٢٠) تفسير السعدي صـ ٣١٧.

(١٢١) تفسير الشوكاني ٣/ ١٦٢.

فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾[يوسف: ٥٦ – ٥٧]،

قال الشيخ المراغي في تفسيره لهذه معنى قوله تعالى:"﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ ﴾ أي ومثل هذا التمكين الذي سلف ذكر أسبابه ومقدماته، فقد ذكرنا أن إخوة يوسف لو لم يحسدوه ما ألقوه فى غيابة الجب، ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته وأمانته وصدقه لما أمّنه على بيته وماله وأهله، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها، ولو لم تخبّ فى كيدها وكيد صواحباتها ما ألقي فى السجن لإخفاء هذا الأمر، ولو لم يسجن لما عرفه ساقى الملك وعرف علمه وفضله وصدقه فى تعبير الرؤيا، ولو لم يعرف ذلك منه الساقي ما عرفه ملك مصر ولم يجعله على خزائن الأرض، فما من حلقة من هذه السلسلة إلا كانت متممة لما بعدها، وبإذن الله كانت سببا للوصول إلى ما يليها، فكل الأحداث التي حصلت ليوسف

علسه السلام فى بدايتها كانت شرا وخسرا، وفى عاقبتها فوزا ونصرا مبينا، ومهدت للتمكين ليوسف في ملك مصر.

فكما مكّن له فى ذلك مَكَّن له فى أرض مصر، وقد جيء به مملوكا فأصبح مالكا ذا نفوذ وأمر ونهى لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره، وصار الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه فيما يرى بما أعده الله تعالى له من تحلية بالصبر واحتمال الشدائد، والأمانة والعفة وحسن التصرف والتدبير للأمور، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ أي نخص برحمتنا من إعطاء الملك والرياسة والغنى والصحة ونحوها من نشاء من عبادنا، بمقتضى ما وضعنا من السنن فى الأسباب الكسبية مع موافقتها للأحداث الكونية، ومراعاة النظم الاجتماعية، والفضائل الخلقية.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ولا نضيع أجر من أحسنوا فى أعمالهم بشكران هذه النعم، بل نأجرهم عليها سعادة وهناءة، وقد بذلنا تلك النعم لمن يطلبها متى أتوا للأمور من أبوابها، وساروا على مقتضى السنن

التي وضعناها، أما من يسيئون التصرف فيها فتصيبهم المنغّصات، وتتوالى عليهم المكدّرات.

وفى الآية إيماء إلى أنه ما أضاع صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز بل كان جزاؤه ما مكّن له فى الأرض ولدي ملك مصر:﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ أي إن أجر الآخرة وهو نعيمها يكون للمؤمنين المتقين، وهو خير لهم من أجر الدنيا لأهلها وإن بلغوا سلطان الملك، فإنّ ما أعده لأولئك ليتضاءل أمامه كل ما فيها من مال وجاه وزينة، ولا شبهة فى أن من يجمعون بين السعادتين يكون فضل الله عليهم أعظم، إذ هم أعطوا حقها من الشكر وقاموا بما يجب عليهم نحو خالقهم من طاعته وترك معصيته"[١٢٢]،

وقريباً من معنى هذه الآية قوله تعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

([١٢٢]) تفسير المراغي ١٣/ ٧.

يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[يوسف: ٢١]، قال الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية:" معنى قوله تعالى﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ الإشارة في قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ إلى ما تقدّم من إنجائه من إخوته وإخراجه من الجبّ، وعطف قلب العزيز عليه أي: مثل ذلك التمكين البديع مكنا ليوسف حتى صار متمكناً من الأمر والنهي ، قوله:﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ ﴾ هو علة لمعلل محذوف كأنه قيل: فعلنا ذلك التمكين لنعلمه من تأويل الأحاديث، أو كان ذلك الإنجاء لهذه العلة، أو معطوف على مقدّر، وهو أن يقال: مكنا ليوسف ليترتب على ذلك ما يترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز، ومعنى تأويل الأحاديث: تأويل الرؤيا، فإنها كانت من الأسباب التي بلغ بها ما بلغ من التمكن، وقيل: معنى تأويل الأحاديث فهم أسرار الكتب الإلهية وسنن من قبله من الأنبياء، ولا مانع من حمل ذلك على الجميع. ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ

﴿٢١﴾ أي : على أمر نفسه لا يمتنع منه شيء ، ولا يغالبه عليه غيره من مخلوقاته"(١٢٣).

بعد انتهاء التحقيق مع يوسف عليه السلام فى أمر النسوة وظهور براءته من كل ما نسب إليه من تهم كيديه، استدعاه الملك؛ ليستخلصه لنفسه، فولاَّه أعلى المناصب ومكَّنه من إدارة شؤون مصر، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤ ﴾[يوسف: ٥٤]. قال الشيخ طنطاوي في تفسيره لهذه الآية:" بعد أن انكشفت للملك براءة يوسف عليه السلام انكشافا تاما، بسبب ما سمعه عنه من النسوة ومن امرأة العزيز، وبعد أن سمع تفسيره للرؤيا وأعجب به، كما أعجب بسمو نفسه وإبائه .

بعد كل ذلك قال الملك لخاصته: ائتوني بيوسف هذا؛ ليكون خالصا لنفسي، وخاصا بي فى تصريف أمورى، وكتمان أسراري، وتسيير دفة

---

(١٢٣) تفسير الشوكاني ٤/ ١٤.

الحكم فى مملكتي، والسين والتاء فى قوله تعالى: ﴿أَسْتَخْلِصْهُ﴾للمبالغة فى الخلوص له، والاستخلاص طلب خلوص الشيء من شوائب الشركة، فكأن الملك قد شبه يوسف عليه السلام بالشيء النفيس النادر، الذى يجب أن يستأثر به الملك دون أن يشاركه فيه أحد سواه،

والمراد بـ ﴿مَكِينٌ﴾ أي: صاحب مكانة ومرتبة عظيمة، يقال: مكن فلان مكانة إذا ارتفعت منزلته والمراد بـ ﴿أَمِينٌ﴾ أى: مأمون على ما نكلفك به، ومحل ثقتنا، وتلك المقالة من الملك ليوسف، هى أولى بشائر عاقبة الصبر؛ وعزة النفس، وطهارة القلب، والاستعصام بحبل الله المتين"[١٢٤].

التمكين في الأرض لقوم موسى عليه السلام

وممن مكّن الله تعالى لهم في الأرض بعد الابتلاء، الصالحين من بني إسرائيل، وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم أنواع الابتلاءات التي أصابتهم من قبل فرعون وجنوده، قبل أن يمكن الله تعالى لهم في الأرض،

([١٢٤]) تفسير الطنطاوي (الوسيط) صـ: ٢٣٢٢.

.

قال تعالى﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ [إبراهيم: ٦]، قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:" يقول تعالى مخبرا عن موسى، حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حين كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم فأنقذ الله بني إسرائيل من ذلك، وهذه نعمة عظيمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ أي: نعمة عظيمة مَنَّه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها، وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿بَلَآءٌ ﴾أي: اختبار عظيم، ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كما قال تعالى:﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٨]"[١٢٥].

([١٢٥]) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٧٩

وقال ابن عاشور عند هذه الآية :" أصل البلاء: الاختبار، والبلاء هنا المصيبة بالشر، سمي باسم الاختبار؛ لأنه اختبار لمقدار الصبر، فالبلاء مستعمل في شدة المكروه من تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه على طريقة المجاز المرسل، وقد شاع إطلاق هذا بصيغة اسم المصدر بحيث يكاد لا يطلق إلا على المكروه، وما ورد منه مستعملا في الخير فإنما ورد بصيغة الفعل كقوله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٥]، وهو جزاء على نبذ بني إسرائيل دينهم الحق الذي أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب- عليهم السلام- واتباعهم دين القبط وعبادة آلهتهم، واختيار وصف الرب هنا؛ للإيماء إلى أنه أراد به صلاح مستقبلهم وتنبيههم لاجتناب عبادة الأوثان وتحريف الدين" (١٢٦).

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم انتقامه من فرعون وجنوده، الذي سبق التمكين لبني إسرائيل في الأرض، ومن الآيات القرآنية الدالة على ذلك، قوله تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا

(١٢٦) التحرير والتنوير، لابن عاشور، (١٣/ ١٩٢)

وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾،

قال سيد قطب في ظلاله عند هذه الآية:" يجيء التمكين للمؤمنين في الأرض وفق سنة الله في أخذ المكذبين بعد الابتلاء للمؤمنين بالضراء والسراء، وتقع الواقعة ويدمر الله ملك فرعون وملئه، بعد إذ أمهلهم وأجلهم إلى أجل هم بالغوه – ويحقق وعده للمستضعفين الصابرين بالتمكين لهم في الأرض، بعد إهلاك الطغاة المتجبرين، وإذا فرعون الطاغية المتجبر وقومه مغرقون، وإذا كل ما كانوا يصنعون للحياة، وما كانوا يقيمون من عمائر فخمة قائمة على عمد وأركان، وما كانوا يعرشون من كروم وثمار، وإذا هذا كله حطام، وفي ومضة عين، أو في بضع كلمات قصار! ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾، وهذا التمكين لبني إسرائيل كان في الفترة التي كانوا أقرب ما يكونون فيها إلى الصلاح وقبل أن يزيغوا فيكتب عليهم الذل والتشرد، وهذا التمكين لم يكن في مصر،

ولم يكن في مكان فرعون وآله، إنما كان في أرض الشام، وبعد عشرات السنوات من حادث إغراق فرعون، بعد وفاة موسى عليه السلام وبعد التيه أربعين سنة كما جاء في السورة الأخرى.

وفي هذه الآيات مثلاً يضربه الله تعالى للقلة المؤمنة في مكة، المطاردة من الشرك وأهله؛ ورؤيا في الأفق لكل عصبة مسلمة تلقى من مثل فرعون وطاغوته، ما لقيه الذين كانوا يستضعفون في الأرض، فأورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها المباركة، بما صبروا، لينظر كيف يعملون!"[١٢٧].

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم منن الله تعالى على بني إسرائيل، والتي سيحصلون عليها بعد أن يمكن الله تعالى لهم في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦ ﴾ [القصص: ٥ – ٦]، قال الشيخ الشعراوي

([١٢٧]) تفسير سيد قطب (في ظلال القرآن) (٣/ ٢٨٤.

في تفسيره لهذه الآية:" المنة: عطاء مُعوّض، وبدون مجهود من معطي المنة، كأنها هِبَة من الحق سبحانه، وغضبة لأوليائه وأهل طاعته؛ لأن الحق تبارك وتعالى كما قال الإمام علي: إن الله لا يُسلِم الحق، ولكن يتركه ليبلو غَيْرة الناس عليه، فإذا لم يغاروا عليه غَارَ هو عليه.

والحق تبارك وتعالى حينما يغَارُ على الذين استُضعِفوا لا يرفع عنهم الظلم فحسب، وإنما أيضاً ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾أئمة في الدين وفي القيم، وأئمة في سياسة الأمور والملك ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾، أي: يرثون مَنْ ظلمهم، ويكونون سادةً عليهم وأئمةً لهم، فانظر على كم مرحلة تأتي غيرة الله على أهل الحق، ولولا أن فرعون تأبَّى على الله ورفض الانقياد له، لشملته رحمة الله، ولعاشَ هو ورعيته سواء؟؛ لذلك **أهل الثورات الذين** جاءوا للقضاء على أصحاب الفساد، وإنصاف شعوبهم، كان عليهم، بعد أنْ يقضوا على الفساد، وبعد أن يمنعوا المفسد أن يُفسِد، ويحققوا العدالة في المجتمع، كان عليهم أنْ يضموا الجميع إلى أحضانهم ورعايتهم، ويعيش الجميع بعد تعديل الأوضاع سواسية في مجتمعهم، وبذلك نأمن **الثورة المضادة.**

ثم يقول تعالى استكمالاً لمِنَّته على بني إسرائيل: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾، التمكين يعني: يتصرف فيها تسلطاً، ويأخذ خيرها. وقوله تعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ أي: سنريهم الشيء الذي يخافون منه، والمراد النبوءة التي جاءتهم، إما عن طريق الكهنة، أوعن طريق الرُّؤيا، حيث رأى فرعون ناراً تأتي من بيت المقدس، وتتسلط على القِبْط في مصر، لكنها لا تؤذي بني إسرائيل، فلما عبَّروا له هذه الرؤيا قال : لا بد أنه سيأتي من هذه البلد من يسلب مني مُلْكي.

ويُرْوى أن الكهنة أخبروه أنه سيُولد في هذه السنة مولود يكون ذهاب مُلْكك على يديه، وسوف يرى فرعون وقومه هذه المسألة بأعينهم ويباشرونها بأنفسهم، وسيقع هذا الذي يخافون منه؛ لذلك أمر فرعون بقتْل الذكْران من بني إسرائيل ليحتاط لأمره، ويُبقِي على مُلْكه، لكن هذا الاحتياط لم يُغنِ عنه شيئاً، وملكَّ الله تعالى لعباده المستضعفين في الأرض"[١٢٨].

([١٢٨]) تفسير الشعراوي صـ ٦٨١٨، باختصار وتصرف.

فالتمكين للمؤمنين في الأرض لا بد أن يسبقه ابتلاء وامتحان؛ ليتحقق به أهداف الابتلاء السابق ذكرها، فليوطنوا أنفسهم على تحمل تلك المشاق في ذات الله تعالى، وليوقنوا أن الله قد وعدهم بإحدى الحسنيين إما النصر والتمكين في الأرض، أو الشهادة الثواب في الآخرة.

فهرس الكتاب

استهـلال ٣

الإهـــــــداء ٤

المقدمة..... ٥

التمهيد: التعريف بمصطلحات الكتاب ٨

أولا: الابتلاء في اللغة ٨

ثانيا: الابتلاء في الاصطلاح..... ٩

ثالثاً: الأنبياء أشد الناس بلاء..... ١١

المبحث الأول: أنوع الابتلاء من خلال القرآن الكريم ١٨

أولاً: الابتلاء بالعبادات والطاعات ١٩

ابتلاء الله لإبراهيم عليه السلام..... ٢٠

ابتلاء الله تعالى للمؤمنين بنهيهم عن الصيد وقت الإحرام ٢٦

ابتلاء الله تعالى لبني إسرائيل بنهيهم عن الصيد يوم السبت..... ٢٩

ابتلاء الله تعالى لبني إسرائيل بنهيهم عن الشرب من ماء النهر..... ٣٠

ثانيا: الابتلاء بالموت والحياة..... ٣٥

الابتلاء بحسن العمل ٣٧

ثالثا: الابتلاء بالضراء..... ٤١

أنواع الابتلاء بالضراء..... ٤٢

ابتلاء الله تعالى لأيوب عليه السلام..... ٤٩

رابعاً: الابتلاء بالسراء..... ٥٣
ابتلاء الله تعالى لسليمان عليه السلام ٥٤
ابتلاء الله تعالى لأصحاب الجنة ٥٥
ابتلاء الله تعالى للثلاثة الأبرص والأقرع والأعمى ٥٨
خامسا: الابتلاء بالجهاد في سبيل الله ٦٠
ابتلاء الله تعالى للمؤمنين يوم الخندق ٦٣
جحم الابتلاء للمؤمنين يوم الخندق..... ٦٥
الابتلاء بتأخير نصر الله ٠..... ٦٩
طول فترة الابتلاء ٧٥
المبحث الثاني: أهـــداف الابتـــلاء..... ٧٩
أولاً: الابتـلاء لتكـفير السيـئات..... ٨٠
الابتلاء رحمة من الله بعباده..... ٨٠
السيئات التي يكفرها الابتلاء..... ٨٩
ثانياً: الابتلاء لرفع الدرجات ٩٨
ما ينبغي أن يتذكره أهل الابتلاء..... ١٠٠
رفعة درجات أهل الابتلاء في الآخرة..... ١٠٤
ثالثاً: الابتلاء لتمييز المؤمنين من المنافين..... ١٠٩
بالابتلاء يتميز الخبيث من الطيب..... ١١٤
ابتلاء من يعبدون الله على حرف..... ١١٨

الرسول صلى الله عليه وسلم يواسي أصحابه عند الابتلاء ١٢٦
رابعاً: الابتلاء لتأديب المؤمنين ومحاسبتهم..... ١٣٢
ابتلاء الله تعالى للمؤمنين في غزوة أحد..١٣٢.....
مخالفة الأوامر من أسباب الابتلاء.....١٣٨
تأديب الله تعالى للمؤمنين في غزوة أحد ١٤٢
من حِكَمْ ابتلاء المؤمنين يوم أحد..... ١٤٦
خامساً: الابتلاء للتمكين في الأرض ١٥١
الابتلاء الحسن..... ١٥٥
التمكين في الأرض ليوسف عليه السلام..... ١٥٦
التمكين في الأرض لقوم موسى عليه السلام..... ١٦٢